

سردار افسانہ نگار اور شاعر

1940

پندرہویں صدی

1174

1174

الغزوات

مجموعہ

1) تاریخ اسلام

2) تاریخ ہجرت

3) تاریخ غزوات

4) تاریخ فتح مکہ

5) تاریخ بدر

اهداءات 2002

ابراهيم محمد ابراهيم حريبة

القاهرة

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

العقيدة في الإسلام منهج حياة

- خصائص العقيدة الإسلامية.
- كلمة التوحيد في الإسلام ومضمونها السياسي والاجتماعي.
- مراقبة الله في السر والعلن.
- إحسان العمل والقصد والاعتدال.

الدكتور السيد رزق الطويل

العدد ٢٤٥
السنة الحادية والعشرون
صفر ١٤٠٢ هـ
ديسمبر ١٩٨١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عقيدة الإسلام في القرآن

(قل إنني هديت ربي إلى صراط مستقيم . ديناً ، قيامة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

سورة الأنعام من ١٦١ – ١٦٣

(قل : إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم
قل : الله أعبد مخلصاً له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه)

سورة الزمر من ١١ – ١٥

(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد)
سورة الإخلاص

بين يدي هذا الكتاب

باسم الله وحده ، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه محمد عليه
الصلاة والسلام الذي ختم الله به أنبياءه ورسله ، فبإغ رسالة ربه ،
وقدم القدوة الحسنة والسنة القويمة في الاستمساك بكتاب ربه ، .
والامتثال لشرعه ، اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهديه ،
وعضوا بالنواجذ على سنته وشرعته .

وبعد

فهذه صفحات في عقيدة الإسلام أبسط فيها جوانبها ، وأعرض ،
أصولها ، وأقدم موضوعاتها بمنهج جديد ، وتناول فريد ، بعيداً عن
علم الكلام ومصطلحاته ، وألغازه ، وعقده وفلسفاته

والكتابة عن العقيدة محببة إلى لاسياً وأنى أريد لها خلاصاً من أوزار
علم الكلام لتأخذ طريقها المرسوم ، وخطتها الراشدة ، نحو قلوب
الملايين التي تنتظر في هذا المجال ما يشفي وما يرضى

والعقيدة لكل منهج أو مذهب عماد حياته ، ومصير حيويته ،
ومنطلق تأثيره ، وعصرنا الذي نعيش فيه عصر الأيدولوجيات بمعنى
أنه عصر عقائدي ، يحفل بالصراع الفكري ، والنزاع الحاد بين
الفلسفات التي قامت عليها مناهج الاقتصاد والسياسة في مجتمعنا

المعاصر ، وسيطر عليه لونا من التفكير : التفكير الاشتراكي ،
ويقوم على التفسير المادي للتاريخ ، مركزا على الإنسان آلة
دائمة منتجة ، ولا شيء وراء ذلك مما في الإنسان من مشاعر
وأحاسيس ، واللون الثاني هو التفكير الرأسمالي الذي تبدو في ظاهره
الزرعة الإنسانية ، وفي حقيقته تقديس المسال في ضراوة وشراسة .
وكلا اللونين يقوم على الفكر المادي البحت مهما ظهر بينهما
من فوارق واسعة .

وهذه الأيدلوجيات أثرت في المسيرة البشرية في الشرق والغرب ،
وهي على الرغم من تأكيد فلاسفتها ومن قاموا بالجانب التطبيقي لها
أن غايتها إسعاد الإنسان ، لكن الإنسان في ظلها لم يحصل على
الأمن ، ولم يجد الحرية ، وأحيانا يستعصى عليه الغداء ، وحياته
بصفة عامة حافلة بالروع ، مملوءة بالخاوف ، تراقص أمامها أشباح
الحروب البغيضة ، بوسائلها التي زادت مع العلم شراسة .

وسر هذا كله أن مسيرة البشر لا يرسم لها أسباب السعادة
أفراد من البشر هم أهواؤهم ونزواتهم ، لأن التخطيط للمجتمع
الإنساني يحتاج إلى مستوى أكبر من التجرد يسمح له بتقديم تصور
شامل وعادل لحياة الإنسان ، وهذا أمر لا يكون إلا من تدبير
خالق الإنسان ، العليم ، الحكيم ، الخبير .

وتأتي هنا سيادة الدين الالهي على كل أيدلوجيات البشر كسيادة
الحق على الباطل وكانهزام الليل أمام أضواء الصباح .

وقديماً قال أحد الشعراء :

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقسى وأقوم قياساً
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلاً

ودين الله الحق ، الذى اصطفاه للبشر منذ خلقهم يؤدى رسالته الخالدة التى تعجز عنها تماماً أيديولوجيات الإنسان طالما كانت أصوله نقية ، مبرأة من عبث الإنسان ومن زيغفه ، ومن تكلفه وتأويلاته التى يدفع إليها الإنسان بمؤثرات الهوى والتعصب والتقليد .

وعندما ينتهى الأمر بالدين الحق إلى هذه الصورة يفقد حياته وحيويته .

وهذا هو الفرق بين الدين الحق فى صفائه ، وعندما يتحول إلى باطل بتدليس الإنسان وبغيه وذلك فى قوله تعالى : (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى)

وعلى امتداد التاريخ الإسلامى ومنذ عصر التدوين والتصنيف لم تتح الفرصة لتناول العقيدة كما ينبغى من كتاب الله وما يرشد إليه من مفاهيم مناهج عقلية قويمة ، وذلك بسبب طغيان التيار الفاسق اليونانى على حركة التفكير الإسلامى ، وإعجاب بعض المسلمين به ، ومحاولة

بعضهم الآخر الاستفادة منه من دعم الجانب العقلي من أدلة العقيدة ،
وتصدت فئة ثالثة لنقضه والرد عليه ، ومن غمار هذا الغبار الثائر ،
وضعت مبادئ علم الكلام ليكون في خدمة العقيدة ، وليكون بمثابة
خط الدفاع الأول في مواجهة الفكر الملحد .

وإنصافاً للحقيقة فإن مبلغ ما يقال في علم الكلام أنه أدى مهمة كبيرة
في عصره ، وسد فراغاً في دعم الجانب العقلي للعقيدة ، وإن كان قد
أسرف في مسائل عرضتها نصوص القرآن بيسر وبصورة تقنع العقل .

وبعد هذه الفترة لا يصلح علم الكلام وسيلة للتعريف بالعقيدة في
عصرنا الحاضر ، لا للمسلمين ، ولا لغيرهم ، لأنه بمصطلحاته ،
ومناهجه العقلية الموروثة لا يلائم المناهج العقلية المعاصرة كما أنه بهذا
الأسلوب المغاير للمنهج القرآني لا ينجح في إعطاء الصورة الصحيحة
والصادقة للعقيدة الإسلامية لضمير المسلم المعاصر وبقينه .

ولهذا كتبت هذه الصفحات في العقيدة أحاول عرضها بصورتها
الجديدة ، التي أراها الأقوم ، والأعدل ، والأكثر نجاحاً في الوصول
إلى وجدان المسلمين .

ولم أرجع فيما كتبت إلا لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه ولما ثبت صدقه وصحته من الحديث الشريف .

كما ألقت النظر إلى المناهج العقلية في القرآن الكريم ؛ لأن القرآن
الكريم لم يكن - كما تصور المتكلمون - مجرد أدلة نقلية ، وإنما هو
من ناحية أخرى مصدر لأدلة عقلية ملزمة .

وقد حاولت جهدى أن ألتزم الموضوعية التامة ، حفاظاً على الخلق العلمى ، واعتداداً منى بمناهجه النزيهة ، التى ينأى فيها صاحبها عن تناول الأشخاص وليكن العمل متجهاً إلى الرأى من حيث هو ، ومن حيث أدلته ، بصرف النظر عن قائله .

كما ترفعت تماماً عن إصدار الأحكام على الناس بالكفر أو الشرك ، ولا أذكر من هذه الألفاظ إلا ما ورد منها فى نص صحيح ، ثقة منى أن السابقين . عفا الله عنهم . سلكوا هذا المنهج فازدادت حدة الخلاف . وقد جعلت هذا الكتاب فى فصول ثلاثة :

الفصل الأول : عن العقيدة فى الإسلام ، فتحدثت عن التوحيد بشعبه الثلاث وأثرت عدداً من القضايا الجديدة حول عقيدة العرب قبل الإسلام ، وظاهرة الحنيفية ، كما تحدثت حديثاً جديداً عن مفهوم الإسلام والإيمان .

وفى الفصل الثانى : عرضت عرضاً تحليلياً لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ، وأنها تتضمن مرحلتين فى طريق العقيدة ، كما تعتمد على محورين أساسيين هما العبودية ، ولفظ الجلالة .

وأما الفصل الثالث والأخير فقد قصرته على الحديث عن أثر العقيدة فى الأخلاق والسلوك .

وأرجو أن أكون بهذا العمل قد فتحت الباب لأعمال جديدة فى مجال العقيدة ، تصحح مسار البحث والكتابة فيها ، بصورة تخدم المسلم

المعاصر ، في وقت هو في أمس الحاجة لما يصحح العقيدة في هذا الوقت الذي انتشرت فيه آفات العقيدة وعللها .

كما آمل أن أكون قد أوفيت على الغاية أو دانيت ، ضارعاً إلى الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل ، وأن يكون مدخراً لي عنده ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وأن يتجاوز سبحانه عن الهفوات التي لا يخلو منها صنيع بشر ، فالكمال له وحده ، وحسبي أني بذلت الجهد وما آلت ، ومبلغ نفس عذرها مثل منجح .
وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . . .

دكتور السيد رزق الطويل
غرة المحرم ١٤٠٢ هـ
٢٩ من أكتوبر ١٩٨١ م

الفصل الأول

عقيدة الإسلام

- ١ - العقيدة في الإسلام
- ٢ - محور عقيدة الإسلام
- ٣ - توحيد الربوبية
- ٤ - توحيد الألوهية
- ٥ - الحنيفية والحنفاء
- ٦ - منهج القرآن في بناء العقيدة
- ٧ - توحيد الأسماء والصفات
- ٨ - الإيمان والإسلام - مفهوم جديد

١ - العقيدة في الإسلام

معنى كلمة عقيدة :

تقول العرب عقد الحبل ، والبيع ، والعهد ، تعنى بهذا الارتباط الوثيق ، والالتزام القوي حسياً كما في الأول ، أو معنوياً كما في الثاني والثالث ، ويقولون : أعقدت البناء جعلت له عقوداً ، والتعاقد : التعاهد ، والمعاهد : المعاهد ، واليعقيد : عسل يعقد بالنار وأعقدت العنب إذا أغلخته حتى غلظ .

ومن خلال هذا البيان اللغوي يستبين لنا أن لفظ العقيدة بمشتقاته المختلفة يدور حول الإحكام والتوثيق ، ومن هنا ساغ لنا إطلاقها على ربط القلب بفكر أو رأى معين يدور حوله ، ويدعن له ، ويتصرف بمقتضاه ، ويكون منطلقاً لسلكه .

ومما يؤيد ما استنتجناه من خلال الاستعمال اللغوي ورود هذا اللفظ بمشتقاته في القرآن الكريم على النحو الذى أشرنا إليه ، أعنى التوثيق والإحكام وإيجاد رابطة بين شيئين .

يقول الله تعالى : (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً)^(١) .

(١) النساء / ٣٣ .

وما عقدت الأيمان هو ارتباط وثيق عن طريق التحالف بين مسلم ورجل أسلم على يديه وبين الرجل وعبيده الذي أعتقه ، ولقوته يترتب عليه توارث^(١) .

ويقول تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان)^(٢) .

واليمين المنعقدة هي الحلف على شيء في المستقبل يفعله أو لا يفعله ، ولتوثقها نرى في عدم الالتزام بها كفارة ، حتى ولو كان عدم الالتزام ناشئاً عن سبب شرعى .

ويقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم)^(٣) والعقود ارتباط وثيق بين اثنين على أمر من أمور الحياة .

ويقول تعالى : (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله)^(٤) والمعنى لا تنووا عقد النكاح مع المتوفى عنها زوجها حتى تنتهى عدتها ، ولا يجوز إلا مجرد التعريض بالخطبة .

ويقول تعالى : (إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح)^(٥)

(١) الكشاف / ط ص ٢٩٠ .

(٢) المائدة / ٨٩ .

(٣) المائدة / ١ .

(٤) البقرة / ٢٣٥ .

(٥) البقرة / ٢٣٧ .

ومعنى هذا أن المطلقة قبل الدخول لها نصف المهر إلا إذا تنازلت أو تنازل وليها الذى أبرم العقد بالنيابة عنها.

فرى فى هاتين الآيتين التعبير بعقدة النكاح ، مراداً بها العقد ، بما فيه من توثق لا يكاد يوجد فى غيره من العقود حتى إن الله تبارك وتعالى : سماه : الميثاق الغليظ إذ قال عز من قائل (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً)^(١) .

وقال تعالى : (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى)^(٢) .

وعقدة اللسان : لكنة فيه تمسكه ، وتمنعه من الانطلاق فى التعبير .

قال تعالى : (ومن شر النفاثات فى العقد)^(٣) .

وهن السواحر ينقثن فى خيوط معقودة ، جزءاً من أجزاء عملية السحر ، أو كما قال الشيخ محمد عبده : هن النمامات اللاتى يعمان بالنسيمة فيقطعن الروابط والصلات بين الأفراد والجماعات .

وهكذا يضفى الاستعمال القرآنى مزيداً من الوضوح على البيان اللغوى ويعطى للفظ أبعاداً جديدة ، نخلص منها بما يلى :

العقيدة تعنى الارتباط بين القاب البشرى أعنى العقل ، وفكرة أو رأى أو منهج معين ، وأن هذا الارتباط يتميز بالوثاقة ، والقوة ،

(١) النساء / ٢١ .

(٢) سورة طه / ٢٥ - ٢٧ .

(٣) سورة الفلق / ٤ .

والإحكام ، كما يتسم بالثبات والاستمرار ، والاستقرار ، وهذه الإيماءات توحى بها كلمة عقيدة أكثر مما توحى بها كلمة عقد ، أو عقدة .

ولأجل هذا نرى عبارة (العروة الوثقى) لم تأت في القرآن الكريم إلا مرتين وكلتاها في مجال التعبير عن العقيدة الصحيحة التي جاء بها الإسلام ، فيقول تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم)^(١) .

هكذا صورت الآية الارتباط الصحيح بالله بأنها استمسك بعروة محكمة ، وأنها بهذه الصورة لا يتصور أن تضعف أو تحل . وقوله تعالى : (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى)^(٢) . وإذا كان لفظ العقيدة في لسان العرب ، وفي محكم التنزيل له هذه الأبعاد السامية ، فإذا ينبغى للانسان ؟ !

ينبغى للانسان أن يبذل أكبر الجهد ، في تصحيح الاعتقاد ، وأن يكون موضوع اعتقاده أهلاً لذلك ؛ إذ ستمنحه عقلك ، وسيكون محور تفكيرك ، ومنطلق سلوكك ، وملجأك وهلاكك ، فمن لذلك غير الله الحق ، (رب السموات ، ورب الأرض ، رب العالمين ، وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)^(٣) (أفمن يخلق

(١) البقرة / ٢٥٦ .

(٢) سورة لقمان / ٢٢ .

(٣) الحاثية / ٣٦ ، ٣٧ .

كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله
لغفور رحيم (١)

٢ - محور العقيدة في الإسلام

تدور العقيدة في الإسلام حول محور واضح وصريح هو التوحيد . .
توحيد الله رباً بمعنى الإقرار بوحديانيته في الفضل والإنعام والعطاء ،
وكل مظاهر التربية ، البارة ، المعطاءة التي تفهم من لفظ الربوبية .
وتوحيد الله تعالى إلهاً بمعنى إفراده بالعبادة ، فلا نتجه بأى مظهر
من مظاهر العبودية لغيره .

وهذا الفهم الذي سبق إليه شيخ الإسلام ابن تيمية كان تحولاً ذكياً
بعلم التوحيد عن تيار الجدل الفلسفي العقيم المسمى بعلم الكلام إلى منحى
آخر ، أو إلى منهج آخر ولا بد من توافر الجانبين جميعاً لتصبح العقيدة
وليتحقق التوحيد السليم .

وقبل أن نفصل القول في هذه القضية ، نريد أن نشير إلى حقيقة .
هي أن الله تبارك وتعالى منذ خلق البشر اصطفى لهم الدين ، وكان
هذا الدين المصطفى هو الإسلام ، يتبين ذلك من آيتين ، أولاهما قوله
تعالى في شأن وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما إذ يقول تعالى (ووصى
بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن

(١) النحل / ١٧ ، ١٨ .

إلا وأنتم مسلمون) (١) وثانيتها في شأن اكتمال رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، ووفائها بكل مطالب الدين الذي رضىه الله ، فيقول تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً) (٢) .

ووراء هذه الحقيقة نتيجتان :

الأولى : أن الإسلام إسماً ومضموناً يعبر تعبيراً صادقاً عن كل جوانب الدين عقيدة وعبادة وسلوكاً .

الثانية : أن رسل الله جميعاً جاءوا بالإسلام ، ودعوا إليه ، وتمنوا من الله أن يموتوا عليه ، فله تعالى دين واحد ، جاءت به رسالات متعددة ، ومن هنا كان من التعبيرات الخاطئة ، الشائعة على ألسنة الكاتبين والمتحدثين : عبارة الديانات السماوية .

وقد أكد القرآن النتيجة الثانية في آيات شتى ، تبين صراحة أن الإسلام دين الرسل جميعاً .

فنوح عليه السلام بين لقومه أن رسالته هي الإسلام : قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين) (٣) .

وإبراهيم عليه السلام كان مسلماً (إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين) (٤) .

(٢) المائة / ٣ .

(٤) البقرة / ١٣١ .

(١) البقرة / ١٣٢ .

(٣) يونس / ٧٢ .

وأبناء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وحفيده يعقوب ، كلهم رسل ورثوا الدعوة إلى الإسلام فيعقوب حين حضره الموت يسأل بنيه عن معبودهم بعده ، (قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون)^(١) .

ويوسف عليه السلام تمنى أن يموت مسلماً ، قال تعالى على لسان يوسف : (فاطر السموات والأرض أنت ولى في الدنيا والآخرة توفى مسلماً وألحقني بالصالحين)^(٢) .

وموسى عليه السلام كان يدعو إلى الإسلام (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)^(٣) .

وسحرة موسى عندما آمنوا طلبوا من الله الصبر والموت على الإسلام (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين)^(٤) .

وعرف فرعون عند الغرق أن موسى يدعو للإسلام فأسلم (فلما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين)^(٥) .

(١) البقرة / ١٣٣ وفي شأن قري قوم لوط قال تعالى : (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) الذاريات و ٣٦ .

(٢) يوسف / ١٠١ .

(٣) يونس / ٨٤ .

(٤) الأعراف / ١٢٦ .

(٥) يونس / ٩٠ .

وسليمان عليه السلام دعا إلى الإسلام ، وسجل القرآن الكريم رسالته إلى ملكة سبأ التي يقول فيها (بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تغلوا على وأتوني مسلمين)^(١) .

وأسلمت الملكة بعد أن استبان لها أنه رسول يهدي لأملاك يخرب فقالت : (رب إنى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)^(٢) ودعا عيسى عليه السلام إلى الإسلام ؛ إذ يقول تعالى : (وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون)^(٣) .

بهذه الشواهد المتعددة عرفنا أن رسالات الرسل جميعاً دعت البشرية إلى دين واحد هو الإسلام الذي يتحقق في أكمل الصور ، بتوحيد الله رباً وإلهاً .

٣ - توحيد الربوبية

وهو الإيمان بوحداية الخالق ، الرازق ، المنعم ، الذي أسبغ نعمه ظاهرة ، وباطنة وبه استحق - وحده - الحمد والثناء الجميل . وهذا النوع من التوحيد يكاد يشمل الخلق جميعاً .

فهو في غير البشر يبدو في التزامها بالسنن ، وخضوعها لقوانين الله التي أقام عليها كونه فلا تتخلف .

(٢) النمل / ٤٤ .

(١) النمل / ٣١ .

(٣) المائدة / ١١١ .

يقول تعالى في شأن السماء والأرض : (ثم استوى إلى السماء وهي
دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين)^(١)
وقال تعالى : (ويسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته)^(٢) .
وقال تعالى : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون
تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً)^(٣) .
وقال تعالى : (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ،
وظلالهم بالغدو والآصال)^(٤) .
وكل واحد من بني الإنسان على دين - أي دين - يعرف توحيد الربوبية
ولا تبعده فطرته مهما انحرفت عن الإيمان بالخالق ، الرازق ، رب
هذا الوجود ، ومدبر أمره .
يقول تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ،
وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)^(٥) .
حتى الملحدون من بني الإنسان الذين دفعهم بغيرهم إلى إنكار
وجود الله بتأثير الشهوات ومتاع الدنيا ، وسلطان الترف ، فوقفت
عقولهم عند قوانين المادة التي منحهم متاع الدنيا وعجزت عن تجاوز
ذلك إلى من وراء القوانين ، ومن واضعها ومسيرها ؟

(١) فصلت / ١١ .

(٢) الرعد / ١٣ .

(٣) الإسراء / ٤٤ .

(٤) الرعد / ١٥ .

(٥) الأعراف / ١٧٢ .

هولاء - برغم هذا كله - يغالطون الفطرة ، وفي قرارة أنفسهم ،
وفي غفلة من العقل الواعي المضلل يقولون عند الخن : يارب !! لأن
الربوبية تربية ، ومهما اشتد العقوق لا سبيل إلى جحودها .

٤ - توحيد الألوهية

وهذا هو الجانب الثاني الذي تكتمل به العقيدة الصحيحة .
ونعني به إفراد الله تعالى بالعبودية ، فهو وحده المعبود بحق .
فإذا كان توحيد الربوبية يعني لا شريك مع الله في الخلق والرزق ،
والإحياء والإماتة وغيرها وهذا أمر لا يكاد يعارض فيه أحد أو أقل
مخلوق فإن توحيد الألوهية يعني أنه لا شريك مع الله في العبادة ،
وهذا أمر يقع في وزره الكثير من بني الإنسان إما قصداً أو بتأول
فاسد ، أو ادعاء حسن النية .

ورسالات الرسل جميعاً جاءت للتصدي لهذا الخطأ أو هذا الخطر ،
وإنقاذ البشر من مغتة الوخيمة ، وهذه هي الشواهد .

يقول تعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين
ألا تعبدوا إلا الله)^(١) .

ويقول تعالى : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله
ما لكم إله غيره)^(٢) .

(١) هود/٢٦ .

(٢) هود/٥٠ .

ويقول تعالى : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)^(١) .

وقال تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)^(٢) .

وبعد قصص هؤلاء الأنبياء قال تعالى في شأن هذه الأمم التي ضلت طريق توحيد الألوهية فانتقم الله منهم (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء)^(٣) .
وتأتى آيات القرآن الكريم ، مؤكدة وحدانية المعبود ، ومنها على سبيل المثال :

(وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)^(٤) .
(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد)^(٥) .

ويقول تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)^(٦) .
ويقول تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)^(٧) .

(١) هود / ٦١ .

(٢) هود / ٨٤ .

(٣) هود / ١٠١ .

(٤) البقرة / ١٦٣ .

(٥) سورة الإخلاص .

(٦) النساء / ٣٦ .

(٧) الإسراء / ٢٣ .

وفي خطاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم يؤكد رب العالمين أن توحيد الربوبية لا تسامح فيه ، ولا يستقيم دين في غيابه ، ولا عفو عن المخطيء فيه ولو كان رسولا : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين)^(١) .

وفي أم الكتاب يقول تعالى ، معلماً إيانا جوهر التوحيد السليم : (إياك نعبد وإياك نستعين)^(٢) .

مشركو العرب . . . كيف كان شركهم ؟
أو ما ملامح الجاهلية في عقيدتهم ؟

هم كما يؤكد القرآن ما أخطأوا في توحيد الربوبية ، بمعنى أنهم كانوا مؤمنين بالله ربا منعما ، لكن فاتهم تماماً توحيد الألوهية أو توحيد العبادة .

لقد وصف القرآن الكريم عقيدتهم تلك في آيات كثيرة . يقول الله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)^(٣) . فهم إذن يعرفون الله رباً بأسمائه الحسنى .

(١) الزمر / ٦٥ .

(٢) الفاتحة / ٥ .

(٣) الزخرف / ٩ .

ويقول تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك
السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من
الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله
ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون)^(١) .

ويتعدد هذا الحوار مع مشركي العرب ، حيث يستبين لنا منه
إيمانهم بالربوبية وأماننا هذا الحوار المعبر من سورة المؤمنون : (قل
لن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل أفلا
تذكرون . قل من رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم
سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء ،
وهو يجير ، ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل
فأنى تسحرون) ثم تسيّر الآيات من سورة « المؤمنون » ترد كل
انحراف عن توحيد العبادة تورط فيه مشركو العرب أو غيرهم ،
فيقول تعالى : (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذن
لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما
يصفون)^(٢) .

وهنا تساؤل يفرض نفسه على المقام .

من أى الوجوه كان شرك هؤلاء القوم ؟ ولماذا سعى القرآن
الكريم قريشاً وغيرهم . من قبائل العرب على أرض شبه الجزيرة .
مشركين ؟ !

(١) يونس / ٣١ ، ٣٢ .

(٢) المؤمنون / ٨٤ - ٩١ .

وتأتى الإجابة صريحة في القرآن الكريم .

يقول تبارك وتعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) (١) .

ويقول تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢) .

لم تأت رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام لتعلم هؤلاء الناس الإيمان فقد كانوا على علم به ، وإنما جاءت لتعلمهم الإخلاص أعنى توحيد العبادة .

أما علمهم بالإيمان فقد ساهم القرآن الكريم مؤمنين عندما قال سبحانه ، (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (٣) بل إنهم كانوا يؤكدون في مجالسهم أنهم لو جاءتهم رسالة لكانوا أهدي من هذه الأمة التي تزعم لنفسها الهداية والاصطفاء وهم بنو إسرائيل يقول جل شأنه :

(١) الزمر / ٣ .

(٢) يونس / ١٨ .

(٣) آل عمران / ١٦٤ .

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً في الأرض)^(١)
ومن هنا جاء في حوار القرآن الكريم للمشركين ، ردّاً على ادعاءاتهم ، وحتى لا تقوم لهم حجة في بقائهم على شرك العبودية ، فيقول تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة)^(٢)

ويتحدث القرآن الكريم عما صرف القوم عن الهداية إلى توحيد الألوهية وأن مرجع ذلك الحفاظ على المكانة ، وهذه قضية سنفصلها عند الحديث عن كلمة التوحيد ، فيقول تعالى : (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا)^(٣) .

نستنتج من هذه النصوص القرآنية عدة نتائج :

أولها : تسمية القرآن الكريم لهم بالموثمين مما يدل على علمهم بالإيمان .

ثانيها : استشرافهم للهداية إذا جاءهم نذير حتى يفوقوا غيرهم في مجال العلم بالله .

(١) فاطر / ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) الأنعام / ١٥٥ - ١٥٧ .

(٣) القصص / ٥٧ .

ثالثها : المنافسة على الهداية مغروسة فيهم ، وأن الله لم يترك لهم
عذراً حين بعث فيهم ومنهم محمداً عليه الصلاة والسلام .
رابعها : كانوا يعرفون أن الهدى مع النبي ، لكنهم لم يتبعوه
استكباراً .

وقبل أن نترك قضية الإيمان عند مشركي العرب وعلمهم به ،
نشير إلى ظاهرة هامة تتصل بهذا الحديث .

٥ - الخيفية والخنفاء

كان في العرب في جاهليتهم ، وقبل بزوغ فجر الرسالة المحمدية
من يسمون بالمتحنفين وهم طائفة تمسكوا بميراث الخيفية السمحة
عن إبراهيم ، وبعثوا تماماً عن شرك العبودية وتعظيم الأصنام ومنهم
قس بن ساعدة وزيد بن نفيل ، وكان أولهما خطيباً مشهوراً في
الجاهلية ، تلتف حوله جموع القبائل في عكاظ ، واستمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم إليه وهو يخطب خطبته المشهورة والتي يقول
فيها : « إن في السماء نجراً ، وإن في الأرض لغيراً ، يقسم قس بالله
قسماً لا حنث فيه أن لله ديناً هو أزكى من دينكم . . . » فقال صلى
الله عليه وسلم - وكان ذلك قبل بعثته - « يبعث قس أمة وحده » ومن
أقوال زيد بن نفيل بن عبد العزى .

وباذن الله ريثي والعجل	إن تقوى ربنا خير نفل
بيده الخير ، ما شاء فعجل	أحمد الله ، ولا نسد لسه
ناعم البال ، ومن شاء أضل	من هداه سبل الخير اهتدى

والجمهرة من قبائل العرب كانت برغم شركها متمسكة بالحنيفية
نعز بها ، وفيهم من كان يحمل اسم عبد الله ، والشاعر زهير
ن أبي سلمى يقول في معلقته :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر ، فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب ، أو يعجل فينتقم

ومظاهر التحنف واضحة في كلام الشاعر ، متمثلة في الإيمان
علم الله بخفايا الصدور ، وبالأيوم الآخر ، وبالحساب .

بل هناك ما هو أكثر دلالة على تحنفيهم وهو ما يرويه ابن هشام في
لسيرة من خطبة أبي طالب في زواج ابن أخيه محمد بن عبد الله من
خديجة بنت خويلد ، فيقول في أولها : الحمد لله الذي جعلنا من
ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وحنفي أصل معد ، وعنصر مضر ،
وجعلنا ساسة حرمه ، وسدنة بيته .

٦ - منهج القرآن الكريم في بناء العقيدة وتأصيلها

قلنا إن العقيدة تتكامل ، وتصح ، وتستقيم بتوافر هذين الجانبين :
توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وأن أولهما قد يوجد بدون
الثاني ومن هنا كانت الآفة التي تورطت فيها أمم البشر ومن أجلها
جاءتهم الرسالات المتعاقبة كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك
من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)^(١) وأن ثانيهما
لا يتحقق إلا مع الأول ، ولا يتصور وجوده بدونه .

(١) الأنبياء / ٢٥ .

وعلى ضوء هذا تعرض المنهج القرآني في تأصيل عقيدة التوحيد .
إنه يتحدث حديثاً مفصلاً عن توحيد الربوبية بحيث يعرض صوراً
شتى من مظاهر الخلق والإنعام تشد العقول إلى النظر السليم ، والفكر
القويم ، ليتأمل في ملكوت السموات والأرض ، وما فيهما من
آثار قدرة الله ، وفي النفس الإنسانية ، وما فيها من إبداع وإحكام ،
وفي سنن الله في الكون العظيم التي بين القرآن الكريم أنها الطريق
الأهدى إلى الحق والأرشد إلى المعرفة الصحيحة . . . ثم يختم القرآن
الكريم الحديث عن مظاهر الربوبية في الآيات بتأكيد وحدانية العبادة
التي هي نتيجة حتمية - في منهج العقول الرشيدة - لتوحيد الربوبية .
وسنعرض أمثلة من القرآن الكريم توضح حقيقة هذا المنهج وأبعاده
في تأصيل توحيد الألوهية وكل عقائد الإسلام بصفة عامة ، وسنتبع
كل مثال بتوضيح شامل لكل جوانبه .

الشاهد الأول :

يقول الله تعالى في سورة النحل (خلق السموات والأرض بالحق
تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين .
والإنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها
جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد
لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل
والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله
قصد السبيل ، ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل
من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسمون . ينبت لكم

به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر ، لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يعيشون . إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون^(١) .

نظرة في هذه الآيات :

تحدثت عن مظاهر كثيرة ومتعددة للربوبية .

تحدثت الآيات حديثاً مجملاً عن خلق السماء والأرض ، وعن خلق الإنسان ، وخصومته لربه .

وتحدثت عن الأنعام ، وما فيها من الدفء والمنافع ، كالأكل والملبس ، وحمل الأثقال ، وتقريب المسافات ، والتمتع بجمالها رائحة وسارحة ، وقدم الرواح على السروح ؛ لأن الإحساس بالجمال في ذلك الوقت أعظم وأكبر .

(١) سورة النحل من ٣ - ٢٢ .

ثم تحدثت عن حيوانات الركوب والزينة .

ثم فصّلت القول في نعم الله في الأرض وفي السماء من زروع وأشجار ، وثمار ونباتات مختلفاً ألوانها ، وكذا الشمس والقمر والنجوم .

وتحدثت عن البحر واللحم الطرى ، والمعادن الثمينة في أعماقه ، والفلك تجرى فيه .

وفي ختام الآيات تحريك للانسان إلى التفكير والتعقل ، والتذكر باعتبارها وسائل فعالة في هداية الإنسان إلى الحق .

ثم تخلص الآيات من توحيد الربوبية إلى تأكيد العبودية لله الواحد ، ويأتى هذا التساؤل ، محمداً معالم الإجابة الهادية إلى الحق والرشاد .
(أفمن يخلق كمن لا يخلق) ؟ وتتقرر هذه الحقيقة التي لا ريب فيها :
(إلهكم إله واحد) .

الشاهد الثانى :

يقول الله تعالى في سورة النمل (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آله خير أم ما يشركون أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبثنا ، به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون .
أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، إله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون .

أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، إله مع الله قليلاً ما تذكرون ، أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله ، تعالى الله عما يشركون) (١) .

نظرة في الآيات :

تقدم هذه الآيات منهجاً آخر في الربط بين توحيد الربوبية والألوهية ، قائماً على الحوار ، والموازنة لتتيح للعقول السليمة فرصة للتعرف على الحق ، والعبودية لله وحده .

ومحورها : **«الله خير أمّا يشركون ؟»**

ثم تسوق مظاهر من الربوبية أصيلة ، وعميقة ، وموثرة ، ومع كل أثر يساق ، أو دلالة تقدم . سؤال : **«إله مع الله ؟ ولا يسع الخبيب الواعي ، البعيد عن الأهواء إلا أن يقول : لا إله إلا الله .»**

وفي ختام الآيات نجد أوصافاً للمشركين تتناسب مع جحودهم وغفلتهم فوصفهم الله بالعلول عن الحق وعدم العلم ، وأنهم لا يتذكرون ، وأن الله منزّه عن شركهم .

الشاهد الثالث :

يقول الله تعالى في سورة لقمان : **(خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وبث فيها من كل**

(١) سورة النمل / ٥٩ - ٦٣ .

دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين (١)
نظرة في الآيتين .

تحدثت أولاهما في إيجاز عن مظاهر شتى من الربوبية ، واتجهت الثانية إلى المشركين تفحّمهم بعجز آلهتهم التي أشركوهم مع الله في عبوديته ، فكانوا بهذا الظلم على ضلال مبين .

ولم يكن هذا المنهج القرآني في تأصيل العقيدة مقصوراً على تأكيد توحيد الألوهية عن طريق الربط بتوحيد الربوبية ، وإنما اتبع ذلك فيما يتصل بعقيدة التوحيد من عقائد أخرى .

ومن ذلك عقيدة البعث .

يقول الله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ، فإننا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة ؛ وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وتروى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) (٢) .

(٢) الحج / ٧٤ ، ٧٥ .

(١) لقمان / ١٠ ، ١١ .

فهنا تسيّر الآيات على المنهج نفسه .

ذكرت الإنسان بمراحل خلقه ، باعتبارها مظاهر للقدره .

وقدمت قصة الحبة ، ينزل عليها الماء ، فتتهز الأرض لها

فتنبت الحبة ، وتنبت ، ويجمل وجه الأرض بكل زوج بهيج .

إن قصة الحبة ، هي قصة البعث بعد الموت .

وتختتم الآيات الثلاث بحقائق خمس :

الله هو الحق ، وهو يحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير
وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور

وفي كل موقف عرض القرآن الكريم فيه لقضية البعث ، اتبع
الأسلوب نفسه : الزرع والماء ، وخروج الحبة عوداً أخضر يشق
الأرض وينمو ويروبو ، ثم تختتم الآية بما يفيد أن البعث والنشور كذلك .

في سورة « ق » يقول تعالى : (ونزلنا من السماء ماء مباركاً
فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد .
رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج)^(١) .

ويقول تعالى : (والله الذي أرسل الرياح ، فتثير سحاباً ، فسقناه
إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور)^(٢) .

فالتذكير بالربوبية في هذا الموطن كان هو المنهج الذي أثبت به
القرآن الكريم أيضاً عقيدة البعث .

(٢) فاطر / ٩ .

(١) سورة ق / ٩ - ١١ .

٧ - توحيد الأسماء والصفات

من حقائق العقيدة في الإسلام ، وهي تقوم على مبدأ التوحيد ، أن توحيد الله غير مقصور على جانب الربوبية ، وجانب الألوهية على الذي فصلناه فيما مضى وإنما يطالب المؤمن - لتم عقيدة التوحيد في وجدانه - بتوحيد الأسماء والصفات ، فالله تبارك وتعالى ليس له ند في ربوبيته ، ولا في ألوهيته ، وليس له نظير في أسمائه وصفاته فهو فيما سمي به نفسه ، ووصف فوق ما يخطر ببال البشر ، وأسمى من تصوراتهم .

ففي الند والنظير شامل هذه الجوانب الثلاثة .

فالله تبارك وتعالى في سورة الإخلاص ، التي تتحدث عن الوحدانية بأوجز عبارة ، وأشملها ، وأدقها يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يبلغ الناس هذه الحقائق :

١ - وحدانية الذات .

٢ - وحدانية العبادة وأنه وحده المقصود في الحاجات .

٣ - منزه عن ضعف عاطفة الأبوة التي تدفع إلى المجاملة والمحابة

٤ - وعن ضعف عاطفة البنوة الداعية إلى الشعور بالحاجة إلى الغير .

٥ - وأنه لا يوجد له مثيل .

هذه الحقائق الخمس جاءت في قوله تعالى : (قل هو الله أحد .

الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) .

ووصف الله نفسه في سورة الشورى فقال : (ليس كمثل شيء
وهو السميع البصير)^(١) .

ومن آيات الصفات قوله تعالى : (هو الله الذي لا إله إلا هو
عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو
الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز الجبار ،
المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور ،
له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض ، وهو العزيز
الحكيم)^(٢) .

فكل ما هو أكمل وأحسن من الأسماء والصفات هو من خصائص
الذات الإلهية .

وقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه بصفات ، يتصف بها البشر ،
من ذلك قوله جل شأنه : (الرحمن على العرش استوى)^(٣) (ولتصنع
على عيني)^(٤) (كل شيء هالك إلا وجهه)^(٥) (يد الله فوق أيديهم)^(٦)
وجاء في الحديث وصف لله بالنزول ، والقدم ، وأنه يضع قدمه
في النار يوم القيامة ويقول لها « قط قط » وغيرها كثير .

وعندما كان المسلمون يتلقون دينهم بعقل راشد ، ويسر لا تكلف
معه كانوا يستمعون لهذه الصفات تأتي في كتاب الله ، أو في كلام

(٢) الحشر / ٢٢ - ٢٤ .

(٤) طه / ٣٩ .

(٦) الفتح / ١٠ .

(١) الشورى / ١١ .

(٣) طه / ٥ .

(٥) القصص / ٨٨ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يسمح لهم إيمانهم بمناقشة
صفة من هذه الصفات مناقشة جدلية ، وما وجدت عقولهم الهادية
المهدية حاجة إلى البحث وراءها بالسؤال عن الكيفية : كيف
استوى ؟ كيف يكون له عرش ؟ كيف الكرسي ؟ بل كانت تأخذ
ما توحى به هذه الصفات من عظمة وجلال ، وتصف الله تبارك
وتعالى بما وصف به نفسه .

ولم يكن أمام العقل الإسلامي ، وهو يعيش جهاداً مجيداً ، وتفتح
له الأرض إقليمياً بعد إقليم فرصة لأن يخلد إلى جدل ، أو يستنم إلى
مراء .

وعندما بدأ الفكر اليوناني ينفزو العقل الإسلامي ، وله في مجاهل
الفلسفة الإلهية تجارب فاشلة على يد الفلاسفة الكبار مثل سقراط
وأرسطو وأفلاطون ، ولم يجد العقل البشري ما يقنعه فأخذ يسير على
درب الجدل ولم يصل إلى شيء - خدع بعض المسلمين بهذا الزخرف
وفتنوا بهذه الفلسفة ، وظنوا أن فيها حلولاً لمشاكل الفكر الإنساني
وأنها تصلح دعماً للفكر الإسلامي في جوانب العقيدة المختلفة وبخاصة
الجانب الإلهي فأنتهى أمر العقيدة إلى التعقيد .

وفي هذا الوقت كانت حركة الفتح قد خفت ، وظهر على
صعيد المجتمع المسلم فرق شتى بدأت سياسية ، وانتهت إلى مذاهب
فكرية .

وكان من نتيجة هذا وذاك أن ركب العقل المسلم متن الشطط ،
وأسرف على نفسه وبدأ يتحمل عبء الجدل في قضايا ، أراح القدماء
- في تعقل راشد وإيمان قوى - أنفسهم منها .

وبدأ البحث في المتشابه من الأسماء والصفات بالتماس تفسيرات
لها تحمل معنى التنزيه بينما أصر آخرون على التفويض المطلق ، حتى
أمعن المعتزلة في الأمر وقالوا إن صفات الله غير قديمة حتى لا يتعدد
القدماء وهذا مبالغة منهم في التنزيه ، وفي توحيد معنى التوحيد .

وتحول الأمر إلى جدل ثم إلى اتهام ، ووصف المؤولون المفوضين
بالتشبيه والتجسيم ووصف المفوضون المؤولين بالتعطيل ، وظهرت
في ميدان المجتمع فرق وصفت بالمشبهة وبالمعطلة ، وغطى غبار الجدل
على الحق في هذه القضية . والأفكار الفلسفية تمد هولاء وأولئك
بحجج تزيد الجدل استعاراً .

إنها قضية فراغ ذهني وفكري شملت فيما لا يفيد ولا يجدى .

مع أن تاريخ التفكير الإسلامي يحكى لنا قصة الرجل الذي سأل
الإمام مالكا رضي الله عنه عن قوله تعالى : (الرحمن على العرش
استوى) فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان
به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأظنك رجل سوء .

فهنا نرى الإمام مالكا بذكاء خارق ، وفكر راشد يشير إلى
حقيقتين :

أولاهما : أن السؤال عن كيفية الصفات بدعة ، وهو على حق ؛ لأنه لم يحدث أن أحداً من صحابة النبي سأل في مثل هذا . وكذا الأمر في عهد الراشدين من خلفائه .

ثانيتهما : أن البحث في هذه القضايا تحركه دوافع غير سليمة ، ويفتح أمام الفكر الإسلامي أبواباً أولى بها أن تسد ، لأنه في غنى عنها ويكفيه ما توحى به من معاني الجلال والكمال .

إن هذه المشكلة ظلت مفروضة على التفكير الإسلامي حتى عصرنا الحاضر ، وذلك بحكم الركود والجمود ، والتعصب والتقليد ، والكتب المفروضة على الساحة العلمية في المجتمع الإسلامي المعاصر تلزمه بأن يعيش مع هذا النوع من التفكير ، ويختلف أفراده ، كما اختلف سابقوهم حتى يكون منهم مشبهة ومعطلة . وكتب علم الكلام تغرقنا في بحر لا ساحل له .

مع أن القضية هينة والخطب يسير .

لم يطالبنا الله بالتماس تفسيرات لصفاته بل قال سبحانه : (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الأبواب) .

فأحرى بنا أن نتبع منهج الراسخين في العلم وأولى الأبواب بالإيمان بهذه الصفات كما جاءت - مفوضين الأمر في معناها إلى الله مستحضرين في يقيننا أن هذه الصفات غير صفات البشر ، وأنه سبحانه كما قال عن نفسه (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) .

وبالإثبات خرجنا عن دائرة التعطيل ، وبنى المثلية والمشابهة خرجنا عن دائرة التشبيه والتزمننا بالحق والحق وحده . ثم وفرنا على أنفسنا جهداً عقلياً عظيماً يمكن أن يكون خلاقاً ومبدعاً لو وجهناه إلى قضايا الفقه والتشريع .

٨ - الإيمان والإسلام

مفهوم جديد . . . وعلاقة جديدة

تحدث علماء الكلام وغيرهم من الكاتبين في العقيدة الإسلامية في إطار المنهج المتأثر بالفكر الإغريقي عن الإسلام والإيمان ، حديثاً يفهم منه أن الإيمان هو المناط على أساس أنه يعنى الجوهر واللب ؛ لأن معناه الإذعان القلبي ، والتصديق الباطني ، وأن الإسلام يعنى الشكل والمظهر ، وبناء على هذا فالوصف بالإيمان أجل شأننا ، وأعظم قدراً من الوصف بالإسلام .

يقول الشيخ عبد الخليل عيسى : موجب اللغة أن الإسلام أعم ، والإيمان أخص ، فكل تصديق تسليم ولا عكس ، وهذا فهم صحيح من الناحية اللغوية .

ثم يتناول العلاقة بينهما حسب الاصطلاح الشرعي ، فيذكر أقوال العلماء والمتكلمين حسب تصورهم لها ، فيقول : ومعناها بحسب إطلاق الشرع ، تارة يطلقان على معنى واحد فيكونان مترادفين ويطلق كل منهما على معنى يباين الآخر ، فيكونان متباينين ، وتارة

يطلق أحدهما على معنى ، ويطلق الآخر على ما يشمل هذا المعنى وغيره ، فيكون بينهما العموم والخصوص المطلق^(١) .

وهذه صورة للفهم المتأثر بالفكر الإغريقي ، كما قلت ، وهو فهم غير دقيق .

ذلك لأن الإسلام علم على دين الله ، يندرج تحته كل ما جاء فيه من أبواب الهداية ، والإيمان بالله وحده باب منها ، ولن تكون له قيمة أو مكانة إلا في إطاره ، وهو بدونه ضلال .

والاستعمال القرآني للفظين يؤكد هذا الاستنتاج ، يقول ربنا تبارك وتعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)^(٢) .

والمتبع للفظ الإسلام ومشتقاته في القرآن الكريم على النحو الذي أسلفناه يتأكد له أنه يعنى الباطن ، ممثلاً في عبودية خالصة لله ، والظاهر ممثلاً في شعائر ومناسك ، يتقرب بها الإنسان إلى الله بجانب الالتزام التام بمنهج الرحمن في علاقة الإنسان بالحياة والأحياء .

فإنه تبارك وتعالى يقول في سورة الزمر من الآية ٥٤ : (وأنبيوا إلى ربكم ، وأسلموا له) .

وعندما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتبه المتعددة يدعو ملوك العالم ، وذوى الشأن فيه إلى الإسلام ، انحصرت دعوته في

(١) صفوة صحيح البخارى - الجزء الأول - كتاب الإيمان .

(٢) سورة الذاريات / ٢٥ ، ٢٦ .

هذه العبارة : « أسلم تسلم ، يؤتلك الله أجر ك مرتين » ، فإذا أسلم الواحد منهم نفسه لله ، فقد سلم ، ولا يراد منه أكثر من هذا .

والاستعمال اللغوي ، كما تشهد به معاجم اللغة وقواميسها لا يساند ما اتجه إليه علماء الكلام ؛ إذ « الإيمان » على ضوء الاستعمال اللغوي يعد جزءاً من الإسلام .

ولعل الذي زكى لديهم هذا الفهم هذه الآية التي جاءت في سورة الحجرات ، وهي قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وذلك حيث ذكر الإسلام مقابلاً للإيمان ؛ إذ أن هؤلاء الأعراب منافقون لهم ظواهر إسلامية وليس لهم يقين صادق ، فمن حقهم أن يرفعوا شعار الإسلام ، وليس من حقهم أن يرفعوا شعار الإيمان !!

ولهم في هذا المجال قاعدة يرددونها ، ومؤداها : أن الإيمان والإسلام في القرآن إذا ذكر أحدهما بدون الآخر ، شمل الاثنين جميعاً ، وإذا ذكرا معاً في آية واحدة اختلف مفهومهما ، وأصبح الإسلام يعني الأعمال الظاهرة ، والإيمان يعني الأعمال الباطنة^(١) .

والجزء الأول من هذه القاعدة صحيح .

فإذا تحدث القرآن عن الإيمان الصادق ، الذي يحقق لصاحبه

(١) يرى هؤلاء أن الإسلام في الآية مراد به استسلام الجوارح فحسب فهو مقصور على جانب واحد من جوانبه المتعددة ، ولكن أمر الله لهم برفع شعار الإسلام إنما يعني الإسلام الشامل لا الجزئي .

القبول والرضا و يمنحه المثوبة ، فهو بلاشك لا ينفصل عن الإسلام .
وإذا تحدث عن الإسلام وحده فبلا ريب يعنى العقيدة الخالصة
لله ، التى تدفع صاحبها إلى القول الطيب والعمل الصالح .

لكن الجزء الثانى من القضية هو الذى يتطلب مناقشته !!
فذكر لفظ الإيمان والإسلام فى آية واحدة لا يعنى اختلافاً فى
مفهوميهما ، ولا يعنى أن الإسلام مقصور على العمل الظاهرى .
ولنرجع إلى آية الحجرات لنعرضها العرض الذى نراه صحيحاً .

فهؤلاء الأعراب الذين نافقوا أرادوا الإعلان عن انتمائهم لمجتمع
المسلمين الذى يقوده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفعوا شعار
الإيمان ، وهو تصرف غير سديد لأن شعار هذا المجتمع هو الإسلام
الذى يعد الإيمان جزءاً منه . والذى يريد الانتساب لكل لا يرفع
شعاراً معبراً عن الجزء وحده ، على أن هذا الجزء الذى رفعوا
شعاره لم يصل إليه هؤلاء الأعراب بعد ، ومن المتوقع بحكم التعبير
بلفظ « لما » أن يصلوا إليه ، وكان الأولى لهم أن يرفعوا الشعار
الشامل ، الذى يحقق لهم الفوز والفلاح ، وهو يتمثل فى طاعة الله
ورسوله التى هى الإطار العام للالتزام بالمنهج الإسلامى .

وكان الله تعالى ينصح هؤلاء الأعراب الذين يتخبطون فى القول
بعد التخبط فى السلوك والاعتقاد بأن يلتزموا بالإسلام كاملاً غير
منقوص .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن ينبه أصحابه إلى التمسك بشعار الإسلام وحده ، دون أى شعار آخر ، حتى ولو كان هذا الشعار هو الإيمان .

من ذلك ما رواه البخارى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، أنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام يوزع الصدقات ، ويعطى رجلاً ، لا يراهم سعد مستحقين لها ؛ لعدم صدق إسلامهم ، ويترك رجلاً — يراه سعد أحق بها ، فيقول : يا رسول الله ، مالك عن فلان ؟! إني لأراه مؤمناً ، فيقول له النبي عليه الصلاة والسلام : «أو مسلماً» !! ويواصل النبي صلى الله عليه وسلم عمله في توزيع الصدقات ، ويظل سعد يراجعه والنبي عليه الصلاة والسلام يرد عليه قوله ، ويقول : «أو مسلماً» ، ثم يقول : «يا سعد ، إني لأعطي الرجل ، وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله في النار»^(١) .

وهنا أقول : إن النبي عليه الصلاة والسلام عندما يقول لسعد : «أو مسلماً» بمعنى قل : إنه مسلم ، ولا تقل : إنه مؤمن ، على أساس أن الإسلام هو الشعار الذى ينبغى أن يعلن وأن يرفع .

وليس المقصد من هذا أن الإيمان من عمل القلب ، فلا يعلم به أحد ، بينما الإسلام أمره يسير ، لأنه أعمال ظاهرية نراها ويمكن أن نحكم على صاحبه بمقتضاها ؛ إذ يترتب على هذا التصور أمر

(١) كأن سعداً كان يتصور أن الأحق بالصدقة من هو أصح إسلاماً ، ولأجل هذا يبين له النبي عليه الصلاة والسلام أن الصدقات في الإسلام قد تكون منجياً لمعالجة القلوب المريضة والمرتابة ، إنقاذاً لها من الريبة والشك .

خطير ، هو أن المنافق يمكن أن يسمى « مسلماً » مع أنه لا إسلام له ، لأن الإسلام يعنى إسلام القلب ، والمنافق لا يملكه ؛ ولأن المسلم كما عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم — من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمنافقون كثيراً ما تمتد أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وأما كون المنافق مستسماً في ظاهره لدولة الإسلام التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذلك لا يسوغ لنا أن نقول : إنه مسلم ، ولكن نقول : إنه منافق أو مستسلم .

وعندما عالج الرسول عليه الصلاة والسلام قضيتهم بمنهج العفو الذي هو خلقه ، في موقف يجب أن ينكشف فيه أمرهم ، وتحسم قضيتهم فتقدم للصلاة على كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي . نهاه الله تبارك وتعالى عن مثل هذا وقال : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون)^(١) .

ومن هنا نصل إلى نتيجة :

اسم الإسلام أولى وأعظم ، وأدق وأحكم ، ويؤيد ذلك في تقديري شواهد عديدة :

أولها : اختيار اسم الإسلام علما على الدين الحق الذي اختاره الله لعباده ، وأرسل به رسوله ، وقد فصلنا — فيما مضى — جوانب هذه الحقيقة .

(١) التوبة : ٨٤ .

ثانيها : الإيمان الصحيح الصادق يمثل جزءاً من الإسلام ، وهو جانب العقيدة ، فلفظ الإسلام يوحى بالإيمان ، ويعبر تعبيراً واضحاً عن العقيدة ؛ إذ معنى أن يسلم الإنسان وجهه لله أن تكون عبوديته خالصة له وحده^(١) .

ودخول الجانب القلبي وهو العقيدة في مفهوم الإسلام ، يؤيده قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً »^(٢) .

وكذلك ما رواه أحمد رضي الله عنه . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : «الإسلام ، فقبل أى الإسلام أفضل ؟ فقال : الإيمان» .

فالإقرار بالعبودية لله وحده ، وبالرسالة لنبية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو مناط الإيمان السديد المقبول عند الله تعالى يعد الركن الأول في بناء الإسلام .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان بأن تؤمن بالله وملائكته

(١) وقد حملت الفرق الإسلامية نفسها منذ قديم عبتاً كبيراً في مناقشة قضايا فرضية مثل : ما حكم من اعتقد بقلبه ، وآمن وصدق ، ولكنه لم يعمل عملاً صالحاً ، أو ارتكب كبيرة مثلاً / ويدور بينهم خلاف واسع ، ولو أحسنوا التفكير لاستراحوا به / إذ لا يمكن لصادق العقيدة أن يتخلل عن منهج تفرضه عليه عقيدته .

(٢) رواه البخارى في كتاب الإيمان من حديث ابن عمر .

وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والإيمان على هذا النحو لا يفيد صاحبه ما لم يكن معه إقرار ، واتجاه بالعبودية لله وحده بأن تكون هذه العقيدة في دائرة الإسلام الحق .

ثالثها : يمكن للإيمان أن يداخله الشرك ، ويمكن أن يكون الإنسان مؤمناً ، وفي الوقت نفسه على ظاهرة من ظواهر الشرك .
وما أكثر المؤمنين !! وما أقل العابدين المخلصين الذين سماهم ربنا تبارك وتعالى مسلمين !!

يقول الله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)^(١)
(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)^(٢) .

ولم يرد مثل هذا التعبير في القرآن الكريم بالنسبة للفظ الإسلام .
بل نجد الإسلام معه الفوز ، والفلاح ، والنجاة .

يقول الله تعالى : (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور)^(٣) ويقول تعالى :
(بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)^(٤) .

في كلتا الآيتين ارتبط الفلاح والفوز بإسلام الوجه لله مع إحسان.

(١) سورة يوسف / ١٠٦ .

(٢) سورة يوسف / ١٠٣ .

(٣) سورة لقمان / ٢٢ .

(٤) سورة البقرة / ١١٢ .

وجاء في سورة الأنعام ما يفيد احتمال تسرب الشرك لعقيدة المؤمن ،
إذ يقول تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك هم
الأمين وهم مهتدون)^(١) والظلم هنا كما فسرهُ رسول الله صلى الله
عليه وسلم هو الشرك^(٢) . ومفهوم الآية يفيد أن هناك من يؤمن ،
ويقع في الظلم بتوجيه العبادة لغير الله ، ومثل هذا لا يوصله إيمانه
إلى الأمن .

رابعاً : الإيمان يدعيه كل الناس ، محقين أو مبطلين ، لكن
الإسلام لا يرفع شعاره إلا المحبون له ، الراغبون فيه ، ومهما خفت
حماستهم له ، وضعف ارتباطهم به ، وتهافتوا في تمسكهم بمنهجه ،
هم حريصون على شعاره ، وعلى الاستمسك به ، ويمكن بعد فترات
الضعف أن يتيسر للمسلمين من يبعث فيهم الحماسة ، ويعزز الصلابة ،
ويعيد الرابطة القوية ، فيبتدون بهديه ، ويعودون به أعزاء أقوياء .

لكن دعوى الإيمان أى إيمان عقيدة بلا رابط ، وحماسة بلا
منهج ، وعاطفة بلا ميزان ، ودين بلا هداية .

(١) سورة الأنعام / ٥٢ .

(٢) في الاستعمال القرآني يأتي الظلم بمعنى الشرك في أكثر المواضع ، وقد قال تعالى
في سورة لقمان : (إن الشرك لظلم عظيم) وقد وصف الله المشركين بالظلم في سورة
البقرة ، إذ قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ،
والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ،
وأن الله شديد العذاب) .

فقد ادعاه المنافقون .

وادعته طوائف شتى ، وفرق متناحرة ألّبت الإسلام ثياب
أهوائها ، فأوقعت بإيمانها المدعى مجتمع المسلمين في سعي التمزق
والشقاق .

ويدعيه الماديون ، والوجوديون ، والماركسيون ؛ لأن هؤلاء
جميعاً ، كل منهم له إله يؤمن به هو الطبيعة ، أو الرياضة ، أو
التفسير المادى للتاريخ ، وحتمية الصراع بين الطبقات .

كل هؤلاء يدعون الإيمان ، ويتحدثون عن فضائله ، ويدعون
الاستمساك به .

وهناك من يدعو إليه ليجمع بين متناقضات الطوائف التي ضلت
طريق الإسلام ، الدين الذي اختاره الله وارتضاه .

وكان مشركو العرب قبل الإسلام يملكون الإيمان بالله ، ولا
يملكون الإسلام ، وقد فصلنا القول في حديثهم .

وكل إيمان في غيبة الإسلام وهم وضلال .

ماذا ترى في إيمان يفقد معه الإنسان عقله ، فيغرق في بحار الجهل
والخرافة ؟ !

إن هؤلاء الذين يجرون وراء الدجالين والمشعوذين ملكوا إيماناً
ضالاً ، ألغوا معه عقلهم ورشادهم .

لقد انطلقت في إطار هذا الإيمان الزائف دعوى هادمه : لو اعتقد أحدكم في حجر لنفعه .

ويراد بها - بلا ريب - تقويض بناء الإسلام الذي أعطانا التصور الصحيح للوجود ، وخالقه العظيم ، ورسم لنا المنهج السديد للعلاقات المثلى في الحياة ، وبين الأحياء .

وماذا ترى في إيمان يفقد معه الإنسان إرادته ؟ !

ذكرت لنا الصحف نبأ مثيراً مؤداه : أنه وقعت في مستعمرة « جورج تاون » التابعة لولاية « جوبانا » ، بأمريكا اللاتينية أكبر حركة انتحار جماعية في التاريخ وفي الحقيقة أنها مذبحه لأنهم انتحروا تحت ضغط مادي ونفسي .

يقم في هذه المستعمرة طائفة دينية متطرفة يسمون أنفسهم « معبد الشعب » وزعيمهم قس ، اسمه الأب : جيم جونز^(١) .

يبدو أن الحكومة الأمريكية أرسلت لجنة لتقصي الحقائق في هذه المستعمرة وكشفت أموراً مريية ، فقتلوا أكثر أعضاء اللجنة .

ودعاهم الأب إلى الانتحار ، وحببه إليهم ، وزينه في قلوبهم ، وملاً نفوسهم كراهية للحياة بأساليب نفسية بارعة .

(١) صحيفة الأخبار ، وصحيفة الأهرام الصادرتان في ٢٢ ، ٢٣ من نوفمبر

سنة ١٩٧٨ م وتم الانتحار يوم ٢١/١١/١٩٧٨ .

ولا عجب فمن مبادئ الطائفة أن يتخلى العضو عن كل ممتلكاته
للطائفة !!

ويتعرض لصور من غسيل المخ ، والاستهواء الذاتي ، ونحو ذلك .
تقول عضوة سابقة في الطائفة : إن الأب جيم جونز ، كثيراً
ما يرتقى مذبح الكنيسة في أيام الآحاد ، ويتساءل : من منكم سوف
يتنازل عن حياته من أجلى ؟ من منكم سوف يقدم حياة أطفاله من
أجلى ؟ من سيقدم حياة زوجته ؟!!

وتقول العضوة « لينا » كانت الجموع تتدافع ، وتقول في صياح
« أنا يا أبته » !!

والصورة التي تم بها الانتحار باللغة العجب : قدمت الأمهات
السم لأطفالهن في عصير البرتقال ، ورأين الأطفال يتساقطون !!!
ثم شربن السم وراءهم في هذا العصير ، وتبعهم رجال ، وهكذا .
وحاول بعضهم أن يفيق ويسترد إرادته ، فلاحقه حراس الطائفة ،
وأطلقوا عليهم النار وفر آخرون في الأحرش والغابات .

فما هذا الإيمان الذي مجرد صاحبه من الإنسانية ، من الرحمة ،
من الإرادة الواعية ، ويستجيب لقس مجنون ؟ !!

إنه الخيال بعينه ، وكل إيمان يمكن أن يلقي صاحبه هذا المصير
متى كان بعيداً عن هدى الإسلام وهداه .

ثم ما رأيك في إيمان يفقد معه الإنسان حريره وكرامته ؟ !

إنه لم يبذله باخلاص لربه ، ولو فعل لكان حراً ، كريماً ،
ولكنه بذله كاملاً لشيخه ، يأتمر بأمره ولا يعارضه ، ولا يناقشه ،
حتى لا يطرد من ساحة عطفه ، ولا بد له أن يكون سلب الإرادة
بين يديه ، كالميت بين يدي غاسله . إذا عرفت هذا تقررت أمامك
هذه الحقيقة ، « الإيمان بلا إسلام خيال وغلو » .

والإسلام شواطئ محكمة توجه برفق وحكمة ، وبصيرة هادية
لفيوض الحماسة والعاطفة التي يفيض بها قلب المؤمن ، فإذا بالإيمان
مع الإسلام أداة بناء ، ووسيلة ارتقاء ، ومنهج حرية وكرامة .

ويبقى بعد هذا حق على الإنسان الذي آمن بإيمان المسلمين أن يقول :
الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

الفصل الثاني

التوحيد في الإسلام

- ١ - كلمة التوحيد في الإسلام .
- ٢ - معنى لا إله إلا الله .
- ٣ - النفي والإثبات في كلمة التوحيد .
- ٤ - لا إله إلا الله يندرج تحتها كل عقائد التوحيد .
- ٥ - مضمونها السياسي والاجتماعي .
- ٦ - لكلمة التوحيد ركنان : العبودية ولفظ الله .
- ٧ - مظاهر العبودية .
- ٨ - لفظ الله - مضمونه ومؤداه .
- ٩ - خصائص العقيدة الإسلامية .

١ - كلمة التوحيد في الإسلام

للاسلام الحق مدخل منه يلج الراغب في الهداية إلى جوانب الخير
والفلاح في الإسلام .

وله شعار لا بد أن يعلنه الراغب في الإسلام بلسانه إيداناً بأنه قد
أسلم قلبه .

هذا المدخل ، أو قل هذا الشعار هو لا إله إلا الله .

في عصر الرسالة المحمدية ، المكية منها ، والمدنية ، كان الراغب
في الإسلام يقدم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام عهده وبيعته
بالإسلام عن طريق الإعلان بالشهادة .

ولا إله إلا الله . المدخل والشعار ، لها معنى كبير ، ومضمون
عظيم ، يتجاوز في عمقه وشيوله تصورات الكثيرين .

فهى شاملة للجانب العقيدى كله في الإسلام .

ولها مضمون سياسى كبير .

ولها أيضاً مضمونها الاجتماعى .

٢ - معنى لا إله إلا الله

قبل أن نسبر غور هذه العبارة ، ونتعمق وراء مؤدياتها العميقة والدقيقة نريد أن نعرض لمعناها ، ولما تدل عليه من مراحل وخطوات موصلة للعقيدة السليمة .

معنى إله : أحب حباً شديداً ، أو عبد ، والإله هو معبود ، وإذا ذكر منكرًا في القرآن الكريم ، فمراد به المعبود سواء أكان بالحق أم بالباطل .

ومعنى العبارة كلها : لا معبود بحق إلا الله .

فكان الإنسان يدخل الإسلام مقدماً بين يديه هذا الإصرار أو العزم القاطع على العبودية لله وحده .

وقد ذكرت لا إله إلا الله في القرآن الكريم نحو أربعين مرة .
أكثرها بعبارة لا إله إلا هو .

ووردت قليلاً لا إله إلا أنا - لا إله إلا أنت .

وذكرت بمعناها مثل اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً - اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، في مواطن كثيرة ومتعددة .

وأكثر ورودها في السور المكية وفي الآيات التي تخاطب المشركين ، مؤكدة قضية توحيد الألوهية ، وردا على من تورطوا في أخطاء تتصل به .

وعظمة هذا الشعار ، وما وراءه من مقبرة تعبيرية واسعة وعميقة
أن الشطر الأول منه الذى يتضمن النفي عبارة عن نكرة بعد نفي ،
ففيها تعميق للشمول والاستغراق ، ثم يأتي الشطر الثانى وهو الإثبات
فراه على صورة الاسم العلم الذى لا علم أعرف منه حتى إنه أكثر
تعريفاً من الضمير بعد أداة الاستثناء ، ومعنى هذا بقدر ما فيها من
توسيع رقعة نفي الألوهية عن الآلهة الباطلة تثبت العبودية للحق وحده .

٣ - النفي والإثبات فى كلمة التوحيد

للعقيدة الإسلامية - فى ضوء كلمة التوحيد - مرحلتان :

الأولى : نفي ، والثانية : إثبات .

وتعنى مرحلة النفي استبعاد الآلهة الباطلة من قلب المسلم ووجدانه
فلا يكون لها سبيل إليه ولا سلطان عليه ، وهذه المرحلة تشير إليها
عبارة لا إله بمعنى لا عبودية للآلهة الباطلة فى وجدانى ، وكأن المسلم
يعان فى مقدمة الشعار الإسلامى بأعلى صوته ، تسقط آلهة الأرض
جميعاً - لا ألوهية للمال ، لا ألوهية للجاه والسلطان ، لا ألوهية
للهى ، لا ألوهية لأدعياء السلطان الروحى .

وتعنى مرحلة الإثبات : تأكيد العبودية للمعبود الحق وهو الله
بعد إسقاط الآلهة الباطلة ، وهذه المرحلة يشير إليها الاستثناء فى كلمة
التوحيد « إلا الله » .

مرحلة النفي إذن تعنى تطهير القلب من الشرك بكل مظاهره
وصوره ، ومرحلة الإثبات تعنى غرس بذور التوحيد الخالص في
القلوب التي طابت وطهرت .

وبهذا تتكشف لنا سمة من سمات العقيدة في الإسلام ، وهي أن
من يتبناها - على رشد وهداية - لا بد له من المرور بهاتين المرحلتين .
وهذا أمر قرره القرآن الكريم في مواطن عدة .

يقول تعالى : (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ، وأنابوا
إلى الله ، هم البشري ، فبشر عباد الذين يستمعون القول ، فيتبعون
أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب)^(١) .

فقد أشارت هذه الآية إلى المرحلتين :

أولاهما : اجتناب عبادة الطاغوت ، والمقصود بالطاغوت في
البيان القرآني كل ما يصرف الإنسان عن ربه ، ويشغله عن عبادته ،
ويلهيته عن التوجه إليه ، وهذا هو المقصود بعبادته .

ثانيتها : الإنابة إلى الله ، وهذا هو الجانب الإيجابي ، ويعنى به
بناء العقيدة السليمة في القلب ، بعد تطهيره من عبادة الطاغوت .
وهذا شاهد آخر .

وصف الله عقيدة الإسلام بأنها العروة الوثقى ، التي لا تنفصم ،
وبين الطريق إليها ، وأنه من مرحلتين : أولاهما : الكفر بالطاغوت ،

(١) سورة الزمر / ١٧ و ١٨ .

وثانيتها : الإيمان بالله فقال تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) (١) .

وهذا يعنى أن الإيمان الصحيح بالله لا بد أن يسبقه كفر صريح بغيره ، ومرحلة الكفر السابقة ، لها أهميتها البالغة في تطهير قلب المسلم من رواسب الوثنية ، وأوزار الأعراف الضالة ، وأوشاب العادات والتقاليد المنحرفة ، وهذا يجرى على منهج القاعدة الفقهية : درء المفسد مقدم على جلب المصالح .

٤ - لا إله إلا الله يندرج تحتها كل عقائد التوحيد

لا معبود بحق إلا الله . عندما يتأصل هذا الاعتقاد في يقين الإنسان تبعث عنه كل المعتقدات الإسلامية في جوانبها الثلاثة : الإلهيات ، والنبوات ، والسمعيات .

في آية الكرسي ، التي نردها عقب صلواتنا ، والتي لها شأنها العظيم بين آيات القرآن الكريم ، وفيها يقدم رب العالمين نفسه لعباده إذ يقول جل شأنه : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء

(١) سورة البقرة / ٢٥٦ .

من علمه ، إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ،
ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلي العظيم (١) .

قدمت هذه الآية عددا من صفات الكمال التي يتصف بها رب
العزة ، فهو الحي ، القيوم ، الذي لا ينام ، والمالك لكل شيء ،
والذي يحكم بالعدل في اليوم الحق ، والعليم بكل شيء ، ولا يحيط
بشئ من علمه إلا بمشيئته كأن يمنح هذا العلم لمن يرتضيه من
رسله ، وأن حفظ الكون العظيم لا يتعبه وأنه العلي العظيم .

إن الإيمان باخلاص العبودية لله وحده يفرض علينا أن نصفه
بكل كمال ، وأن ننزهه عن كل نقص ، وهذا هو المقياس العام
للصفات الإلهية ، يقول تعالى : (ذلکم الله ربکم ، لا إله إلا هو
خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه
الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) (٢) .

كما يفرض علينا هذا الإيمان أن نؤمن برسول الله وأنبيائه الذين
يتلقون وحيه ، ويبلغون للبشر رسالته ، فيقول تعالى : (الله يصطفى
من الملائكة رسلا ومن الناس ، إن الله سميع بصير) (٣) وقال تعالى :
(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) (٤) .

(١) البقرة / ٢٥٥ .

(٢) الأنعام / ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) الحج / ٧٥ .

(٤) الأنعام / ٤٨ .

وبحكم هذه العقيدة نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على رسله ،
وبعلاقة هذه الكتب بعضها ببعض وموقف القرآن الكريم منها ؛
إذ يقول تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ثم يقول :
(وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) ثم يقول (وأنزلنا إليك
الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه)^(١)
وفي هذه الآية الأخيرة يتحدد موقف القرآن الكريم من الكتب
السابقة ، وأن له حق الهيمنة عليها بمعنى أنه الكاشف لما أدخل عليها
من زيف وتلبيس ، والفاضح لأهواء أصحاب الأهواء . يقول تعالى
في شأن الرسل وما أوحى إليهم من كتب فيقول تعالى : (رسلا
مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله
عزيزاً حكيماً ، لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة
يشهدون ، وكفى بالله شهيداً)^(٢) .

وكما يدخل في إطار كلمة التوحيد العبودية لله وحده ، والإيمان
برسله ، الذين يحملون رسالاته ، وبكتبه التي تتضمن مناهج دينه ،
كذلك تتضمن الإيمان بملائكته الذين يقول الله فيهم (وإن عليكم
لحافظين . كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون)^(٣) وقال فيهم (إذ
يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه

(١) المائدة / ٤٨ .

(٢) النساء / ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) الانتظار / ١٠ - ١٢ .

رقيب عتيد) (١) وقال في شأنهم (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) (٢) ووصفهم الله تبارك وتعالى فقال : (وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (٣) وقال (فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) (٤)

وقد ذكر القرآن الكريم بعضهم بأسمائهم أو بوظائفهم فقال : (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) (٥) ويقول تعالى : (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقاً لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ، ورسوله ، وجبريل ، وميكال فإن الله عدو للكافرين) (٦).

وتحدث القرآن الكريم عن عقيدة الإيمان ، وما يستتبعها من عقائد ، فقال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، لا نفرق بين أحد من رسله) والإيمان باليوم الآخر من نتائج لا إله إلا الله .

(١) ق / ١٧ ، ١٨ .

(٢) الرعد / ١١ .

(٣) الأنبياء / ١٩ - ٢٠ .

(٤) فصلت / ٢٨ .

(٥) السجدة / ١١ .

(٦) البقرة / ٩٧ ، ٩٨ .

وذلك أن العبودية لله الواحد تتطلب من العابد الواعي أن يكون على ثقة من عدله وحكمته ، وهذا يتطلب البعث والنشر ، ويوم القيامة ، وما فيه من حشر ، وحساب وميزان ، وصراط ، وجنة ونار ، ومشاهد مختلفة جاءت في أصدق الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وبرغم أن هذه المعتقدات تؤمن بها لورودها بالسمع من الصادق الذي لا ريب في صدقه فإنها قضية عقلية بالدرجة الأولى ، وقد عرضها القرآن الكريم على هذا النحو ؛ إذ يقول تعالى : (إن الذين يكفرون بآيات الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار) .

ومعنى هذا بمنهج عقلي أن إنكار يوم القيامة معناه يترتب عليه أن الكون المحكم البديع خلق عبثاً وباطلاً ، وهذا أمر يرفضه العقلاء ، وأمر آخر يرفضه أولوا الألباب (وهو التسوية بين المصلح والمفسد مادامت النهاية فناء بلا حساب) ؛ فيقول تعالى ذلك : (أفنجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار)^(١) ؟ !

وقد جاءت هذه القضية في سورة أخرى ؛ إذ يقول تعالى : (إن

(١) ص آية ٢٧ ، ٢٨ .

للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم
كيف تحكون (١) وهنا تتجه الآيات بأسئلة هادية تفتح الطريق
أمام العقول الواعية لتوقن بقضية البعث وقضية الحساب .

والإيمان بالقضاء والقدر ثمرة حتمية لما تستلزمه « لا إله إلا الله »
حين تعينها القلوب وتستيقنها ؛ إذ أنها تثمر ثقة في الله الواحد ، وبكل
ما يقضى به ويقدره ، وهذه أمور سجلها القرآن الكريم في مواجهة
عميقة الإيمان الخالص ، وما تهدي إليه من عقائد راشدة ، وتصورات
صحيحة ، فيقول تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن
يومن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم) (٢) ويقول تعالى : (ما أصاب
من مصيبة في الأرض ، ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن
نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ،
ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور) (٣) .

ويقول تعالى : (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) (٤) ويقول تعالى :
(وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله ، وإنا
إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك
هم المهتدون) (٥) .

(١) القلم / ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) التغابن / ١١ .

(٣) الحديد / ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) الاحزاب / ٣٨ .

(٥) البقرة / ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

وهكذا تتبع كل معتقدات المسلم في الجانب الإلهي ، وجانب النبوة ، وما يتصل بها من أوصافهم والآيات التي أيدوا بها ، والسمعيات التي تتصل بعالم الغيب ، وعندما تتبع منها إنما يأتي هذا على أساس عقل ومنطقي تؤيده عشرات الشواهد من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة مما يؤكد عمق هذا الشعار ، وشموله ، وعظم محتواه ، ووعيه لكل تصور سديد ، وكل معتقد صحيح .

٥ - المضمون السياسي لكلمة التوحيد

تعد كلمة التوحيد المنطلق الصحيح للحرية الحقيقية ، ولن تتاح الحرية الصحيحة التي يتحرر بها وجدان المسلم وعقله من كل ذل واستخاء وشعور بالهوان والضعف إلا في ظلال هذه الشهادة أو قل : هذه الكلمة المعبرة الموحية .

فماذا وراءها من مضمون ؟

المعبود بحق هو الله وحده ، رب السموات ، ورب الأرض ، رب العالمين ، وكل ما عداه من الأشياء والموجودات ، ومن عداه من بني الإنسان عباد له (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدداً)^(١) وبهذا يتحرر العقل الإنساني من كل شعور بالذل أو العبودية لغيره ، ويجد في ظلال العبودية للرحمن الرحيم ، اللطيف ، الودود ، الكريم ، الغني ذي

(١) سورة مريم / ٩٣ ، ٩٤ .

القوة المتين ، مالك الملك ذى الجلال والإكرام - ذاته ويحس بكرامته ، ويعتز بانسانيته ، ويصر تماماً على أن يكون هو المالك لأمر نفسه .

ولذلك كل من قال : لا إله إلا الله بيقين وصدق وإخلاص شعر بحرية واسعة ، وسعادة بالغة .

وعندما دعا النبي محمد عليه الصلاة والسلام قومه إلى عبادة الله وحده رافعاً شعار لا إله إلا الله الذى رفعته الرسل من قبله ، تحرر العبيد ، وقوى المستضعفون ، واكتشفوا في أنفسهم قوة عظيمة فجرتها لا إله إلا الله جعلت السادة يرهبون عبيدهم الذين تحرروا بلا إله إلا الله ، وأذهلهم شموخهم واعتزازهم بأنفسهم ، وكانوا مع ما يعانونه من بغى واضطهاد سعداء بحريتهم ، فبلال بن رباح وهو في قسوة التعذيب يقول : أحد . أحد . هتافاً بالمعبود الواحد ، الذى حررتة العبودية له .

وروعت قريش من إيمان العبيد ، وإيمان المستضعفين ، وسر هذا الروع أنهم وجدوا هؤلاء الناس في ظلال التوحيد عمالقة كباراً ، وأحراراً أعزاء .

ولم يتحرر بها الأفراد وحدهم ، وإنما تحررت بها الأمم والمجتمعات ، فثلت عروش ، وتهاوت تيجان ، وسقط طناة ، وولت امبراطوريات لقد أعلن النبي عليه الصلاة والسلام أن قاعدة الحرية قائمة على قاعدة العبودية لله وحده ، وذلك يوم الحج الأكبر ، يوم عرفة من السنة

العاشرة للهجرة عندما قال : أيها الناس إن إلهكم لواحد ، وإن
أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب .
وقالها عمر بن الخطاب رضى الله عنه في مناسبة كهذه المناسبة ؛
إذ قال لعمر بن العاص يؤنبه على ما سلف من ابنه في حق القبطى
المصرى ، ويقول له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم
أحراراً ؟ .

إن دليل التحرر يتمثل في القدرة الخارقة على مواجهة الأقوياء .
وقد واجه النبي عليه الصلاة والسلام بغى قريش وعنفها ، كما
واجه احتياها فيما قدمته من عروض سلمية بنفس الإصرار الذى واجه
به تهديدها ، وقال لعمه أبى طالب : والله لو وضعوا الشمس في
يمينى ، والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر إن أتركه حتى يظهره
الله أو أهلك دونه !! .

المضمون الاجتماعى :

والمضمون الاجتماعى لشهادة التوحيد يسير في تيار المضمون
السياسى ؛ لأن الأخير إذا كان يعنى تحرر العقل والفكر والحوارح
من العبودية لغير الله فإن الأول يعنى المساواة بين البشر في هذه
العبودية بحيث لا يكون للانسان مع إدراك هذا المضمون الحق في
ادعاء أى تميز مهما كان باعته !!! جاه أو مال ، أو سلطان ،
أو حسب ونسب ، والله تبارك وتعالى يقول : (يا أيها الناس إنا

خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير (١) .

فإذا كانت لا إله إلا الله وهى محور العقيدة تعلمنا أن المعبود واحد ؛ إذن المساواة قضية حتمية ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

لقد سوت بين البشر فى العبودية لله وحده ، وأذابت الفوارق بين المختلفين فى الأجناس والألوان والأحساب ، كما أذابت البغضاء من القلوب ، وأصبحت القبائل المتنافرة ، المتناحرة بفضل الله إخواناً .

لقد فرغت قريش من لا إله إلا الله ، وأحفظها منها أنها ستلقى المعايير التى كانت قريش تعول عليها ، وأنها ستجعلها مع القبائل الأخرى سواء ، وبذا يذهب عنها ما كانت تعز به من سلطان اقتصادى وسلطان تجارى . وكان ذلك سبباً من أسباب عنهم وبغيهم وأخبرنا القرآن الكريم بذلك عنهم فقال سبحانه : (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . أو لم نمكنا لهم حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون) (٢)

فهم على علم بأن الهدى مع رسول الله ، وخوفهم من تقبل الهداية ما يترتب على العبودية الصحيحة لله من ضياع المقاييس البشرية

(١) الحجرات / ١٣ .

(٢) القصص / ٥٧ .

الزائفة والتي كانت موطن اعتزاز القوم ، ولأنهم وجدوا في رحاب الظاهرة الشركية ، الشائعة فيهم ، والتي تعتمد على وساطة الأصنام والأوثان عند الله ، دعماً للفكر الطبقى ، الذي كانوا يعدونه ضرورة لحياتهم .

ومن مظاهر ذلك في حياتهم أن قريشاً كان لها في الحج طريق خاصة بهم يفيضون منها إذا انتقلوا من عرفة إلى منى ، وكان من فطرة النبي صلى الله عليه وسلم في استقامتها أنه كان يفيض مع سائر العرب ، وكان هذا التصرف في مقدمة الأمور التي استاء لها قومه ، ثم انتهوا أخيراً بعد تبادل الرأي إلى خطة استحسوها ، واقترحها بعض علمائهم ؛ إذ قالوا : لا بأس أن يسير محمد على منهجه حتى يجتمع لقريش فضيلتنا العظيمة . والتواضع جميعاً وظل الأمر على هذا النحو حتى فرض الحج في الإسلام ، ونزل قوله تعالى : (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)^(١) .

وكان من حديث القرآن الكريم عنهم ، الذي يصف استيائهم من لا إله إلا الله ، ومضمونها الاجتماعي قوله تعالى : (إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون : أئنا لتاركوا آلئتنا لشاعر مجنون)^(٢) .

والآية تكشف عن مدى حفيظتهم على رسول التوحيد ، لا رغبة

(١) سورة البقرة / ١٩٩ .

(٢) الصافات / ٣٥ ، ٣٦ .

عنه فهم ورثة الخنيفية ولكن هرباً من المضمون الاجتماعى الذى جعلهم يتشبهون بمن أهوهم ، وعدوهم لله شفعاء ، ووصفوا بالخنون من قال الله فيه : (وإنك لعلى خلق عظيم)^(١) .

والتعبير بلفظ « يستكبرون » يدل دلالة واضحة على الباعث الصحيح عند القوم ، وهو الخوف من المساواة ، وليس خوفاً من عميدة التوحيد فى ذاتها وإلا لقال : يعرضون ، أو يكفرون ، أو يجحدون .

وجاء بهذا المعنى قوله تعالى : (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)^(٢) .

فما سر الإشمزاز ؟ وما سبب الاستبشار ؟
يشمئزون من ذكر الله وحده ؛ لأنه يعنى انتهاء تقديس العظماء وأصحاب الأحساب والأنساب .

ويستبشرون بما هم فيه من شرك ؛ لأنه يتيح الفرصة لسيطرة أخلاق الوثنية .

وفى خطبة الوداع يوم الحج الأكبر أعلن النبي صلى الله عليه وسلم حق المساواة فى ظلال لا إله إلا الله كما أعلن تحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان .

(١) القلم / ٤ .

(٢) الزمر / ٤٥ .

٦ - لكلمة التوحيد ركنان

تدور شهادة التوحيد التي تحدثنا عنها ، وتناولنا معطياتها الواسعة والعميقة حول محورين أساسيين هما : العبودية ، ولفظ الله ، العلم الأعظم ، المعبر أصدق تعبير عن الذات الإلهية .

ويتصلرها النفي ، ويتخللها الاستثناء .

العبودية . . . والعبادة . . .

العبادة والعبودية ، والتعبيد تدور هذه الألفاظ وما يقرب منها من مشتقات حول معنى التذليل والانقياد ، وتقول : عبادت الطريق إذا أصبح سهلاً ذلولاً لا يجد السائر فيه عقبات . وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى : (وتلك نعمة تمنها على أن عبادت بني إسرائيل)^(١) أي ذلتهم وسخرتهم لطاعتك بحيث لا يملكون لك مخالفة .

والعبادة رسالة الكون كله . . فكل مخلوق يعبد الله على نحو معين (سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم)^(٢) .
وغير المكلفين عبوديتهم فطرة وغريزة ، ولا يستطيعون المخالفة .

يقول تعالى : (ويسبح الرعد بحمده)^(٣) (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم)^(٤) .

(١) سورة الشعراء / ٢٢٠ .

(٢) الصف / ١ .

(٣) الرعد / ١٣ .

(٤) الإسراء / ٤٤ .

وقال تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها)^(١) .

ومعنى هذه الآية في أقوم تفسير وأعدله : أن هذه المخلوقات أبت أن تتحمل إثم الخيانة وسارت على طريق الالتزام .

ومنه قوله تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ، ومن في الأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال ، والشجر ، واللواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب)^(٢) .

والعبودية لغير المكلفين تعنى خضوعها للسنن الكونية ، والتزامها بالنظام الإلهي في الكون قال تعالى : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون)^(٣) .

وأما المكلفون فعبوديتهم على الاختيار ، فهي بالنسبة لهم ابتلاء واختبار .

فهم بما ركب فيهم من شهوات وغرائز يملكون المخالفة ، فهم يملكون توحيد العبادة ، كما يملكون الشرك ، ويملكون الإيمان ، كما يملكون الكفر ، ويبيدهم الطاعة والمعصية .

وعبودية المكلفين تعنى الخضوع لله وحده ، بالالتزام بمقتضيات

(١) الأحزاب / ٧٢ .

(٢) الحج / ١٨ .

(٣) يس / ٤٠ .

السنن الكونية ، وتنفيذ أوامر الشريعة التي شرعها الله لهم ، وجعلها نظاما يسرون عليه في كل شئون حياتهم .
وعبادة المكلفين بهذه الصفة التي شرحتها هي الغاية الكبيرة وراء خلق الإنسان .

يقول الله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)^(١) .

وبلا ريب فإن العبادة التي جعلها الله غاية لخلق الإنس والجن ليست مقصورة على ظواهرها المعروفة من صلاة وصيام وحج وزكاة ونحوها وإنما هي تعنى معنى أوسع وأشمل . الالتزام التام بالنظامين : الكوني والشرعي لكي تستقيم الحياة على الأرض ، وتؤدي غايتها المرسومة .

٧ - مظاهر العبادة

- والعبادة اسم جامع لكل صفات الخير والبر والطاعة .
- ومنها العبادات الجسمية كالصلاة ، والصيام .
- ومنها العبادات المالية كالزكاة والصدقات والנדور .
- ومنها العبادات البدنية والمالية مثل الحج .
- ومنها العبادات القولية مثل : الحلف والدعاء .

(١) الذاريات / ٥٦ ، ٥٧ .

ومنها العبادات القلبية كالحب والخشية ، والرغبة ، والرغبة ، والرهبة ،
والأمل والرجاء .

وكل هذه المظاهر يجب أن تتجه لله وحده حتى يتحقق توحيد
العبادة .

دراسة موجزة لبعض مظاهر العبادة

عبادات يفسدها الرياء :

لا بد أن تكون العبادة لله وحده ، ومما يتنافى مع توحيد العبادة
الرياء ؛ لأن الرياء أن يقصد الإنسان في عبادته ثناء الناس ، وقد
جاء في الحديث : الرياء هو الشرك الأصغر .

والعبادات التي يفسدها الرياء كالصلاة والحج والزكاة والصدقات ،
والجهاد .

وهناك عبادات قولية أو قلبية يستهين الناس بأمرها ، فيتجهون
بها لغير الله ، ظناً منهم أنهم لا يقصدون الشرك ، وأن اليقين بالتوحيد
مستقر في القلب .

ولو قبلنا هذه الحجة لوجب علينا أن نقبل حجة مشركي العرب
عندما قالوا : (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

ومن هذه العبادات .

النذر :

وهو توجيه عبادة معينة من غير الفريضة والتطوع لله ، نتيجة لتحقق مطلب معين يرجوه الإنسان من ربه وهو كما جاء في الحديث ، لا يغير من القضاء ، ولكنه تدريب للبخيل على البذل والعطاء .

وقد وصف الله الأبرار بالوفاء بالنذر فقال تعالى : (يرفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً)^(١) وقال تعالى في شأن الحجيج : (ثم ليقضوا تفهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق)^(٢) .

والنذر لا يكون إلا لله ، فلا ينبغي أن يرتبط به غير اسمه ، أو أن يقيد بمكان غير البيت الحرام ، ولا بد أن يكون من شيء يملكه الإنسان ملكاً تاماً .

في غزوة حنين والطائف وقعت امرأة مسلمة أسيرة أو كادت ، ثم لاحت لها ناقة فركبتها لتلحق بجيش المسلمين وقالت : لئن أنجاني الله بها لأذبحن هذه الناقة نذراً لله .

ونجت المرأة على ظهر هذه الناقة ، وتبين أنها ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم - القصواء .

ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال : بئسما جزيتها ، تنجيك وتذبحيها . لا نذر إلا لله ولا نذر فيما لا يملك ابن آدم .

(١) سورة الإنسان / ٧ .

(٢) سورة الحج / ٢٩ .

الدعاء :

الدعاء هو الطلب بذل وخشوع لقضاء مصالح يرجوها الإنسان من ربه ، ولا يقدر عليها غيره وهو مظهر من مظاهر العبادة ، وينال الإنسان بدعائه لله قربي من الله ، وزلفى إليه ، ومثوبة منه .

ووصفه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الدعاء مخ العبادة .

والدعاء منهج المؤمن الصادق ينبغي له أن يحرص عليه صباحه ومساءه ، وغدوه ورواحه ، يقول تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين)^(١) .

والدعاء لا يكون إلا لله ، ودعاء غير الله ظاهرة من ظواهر الشرك ينبغي أن ينأى عنها المؤمن الصادق ، قال تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . أظم أرجلهم يشون بها أم لهم أيدي يطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ، ثم كيّدون فلا تنظرون)^(٢) .

ووصف القرآن الكريم حماقة من يدعو غير الله ، وخيبة مسعاه ، وأنه كمن يصرخ في واد ، وينفخ في رماد ، ويتنقى الغاية البعيدة على راحلة كليلة فقال تعالى : (إن تدعوهم لا يسمعوا

(١) سورة الأعراف / ٥٥ .

(٢) سورة الأعراف / ١٩٤ ، ١٩٥ .

دعاءكم ، واو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون
بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير) (١) .

وفي القرآن الكريم حث على دعاء الله وحده ، ووصف للمعرضين
عن دعائه بالاستكبار ، الموفى بصاحبه إلى النار ، فيقول تعالى :
(وقال ربكم ادعوني استجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي ،
سيدخلون جهنم داخرين) (٢) ونلاحظ في الآية المعادلة التامة بين الدعاء
والعبادة ، وأن المستكبر عن الدعاء مستكبر عن العبادة .

وأكد الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم قربته من عباده ، ورحمته
بهم فهو في غير حاجة إلى واسطة تقرب ، ولا إلى شفيع يحمي
المشفوع فيه من غضب المشفوع عنده ، يقول تعالى : (وإذا سألك
عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى ،
وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون) (٣) .

الرغبة والرغبة :

من مظاهر العبادة الرغبة فى الله ، فى التمسك به وبدينه والحرص
على شريعته ، ومواصلة السير فى دأب على سبيله .

وكانت الرغبة فى الله من أقوم السلوك الذى دعا الله إليه نبيه محمداً

(١) فاطر / ١٤ .

(٢) غافر / ٦٠ .

(٣) البقرة - ١٨٦ .

عليه الصلاة والسلام إذ يقول تعالى : (وإلى ربك فارغب)^(١) .
وهي من صفات المؤمنين المخلصين ؛ إذ يقول تعالى : (وقالوا
حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون)^(٢)
وهي غاية للمتقين الذين تستيقظ ضمائرهم بعد التورط في الخطأ ،
يقول تعالى على لسانهم : (عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ، إنا إلى
ربنا راغبون)^(٣) .

والرهبة ضرب من الخوف ، وهي منه أشد ، وتكون بأن تمتلئ
مشاعر الإنسان إحساساً بجلال الله ، وعظمته ، وقوة سلطانه ،
وسعة علمه ، وقوة بطشه ، ولذا كانت أدخل في باب العبودية .

يتحدث القرآن الكريم عن التوراة ، ودورها في الهداية ، لكن
من ذا الذي ينتفع بها من بني إسرائيل ؟ يقول تعالى : (وفي نسختها
هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)^(٤) وفي نصيح بني إسرائيل
يقول تعالى أيضاً : (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياي فارهبون)^(٥) .

وذكر مظهر رهبته في الحديث عن بني إسرائيل يشير إلى مدى
إغراقهم في الأمانى حتى فاتهم الخوف من مقام الله ، فوقعوا في
معاصيه .

(١) الشرح / ٨ .

(٢) التوبة / ٥٩ .

(٣) القلم / ٣٢ .

(٤) الأعراف / ١٥٤ .

(٥) البقرة / ٤٠ .

والخروج عن سنن الوحدانية للخفاق العظيم خطيئة عظيمة ، ومن هنا دعا الله المشركين إلى رهبة الله الذي آمنوا به ، وفاتهم توحيدهم فقال : (وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد فإياي فارهبون)^(١) .

والرغبة والرغبة من أبرز مظاهر العبودية عند المصطفين الأخيار من رسل الله وأنبيائه ؛ إذ يقول تعالى بعد الحديث عنهم في أواخر سورة الأنبياء : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ، ورهباً وكانوا لنا محاشين)^(٢)

الآمل والرجاء :

يطلق الآمل على كل ما يعلق به المرء نفسه من متع الدنيا وزينتها ، وعندما يكون هذا مبلغ ما يعمل له الإنسان تصبح حياته طواً وضاللاً ، ومتاعاً قليلاً ، وعاب القرآن الكريم على الإنسان الكافر هذا المنهج الذي فيه ضياعه ، وتدمير رسالته الإنسانية قال تعالى : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الآمل فسوف يعلمون)^(٣) .

وعندما يكون الآمل معلقاً بالله وحده ، حرصاً على دينه ، واستمساكاً بشرعه يصبح ظاهرة معبرة عن صحة العقيدة ، وإخلاص

(١) النحل / ٥١ .

(٢) الأنبياء / ٩٠ .

(٣) الحجر / ٣ .

العبادة ، ولهذا قال جل شأنه : (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ، وخير أملاً)^(١) .

والرجاء في الله من مظاهر العبادة الخالصة .

وهو من المظاهر الفاصلة بين قوة العزم في يقين المؤمن ، وذلة الضعف ، وتخاذله عند المشرك الكافر الذي انقطع حبل الرجاء بينه وبين مولاه ؟ إذ يقول تعالى : (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيماً)^(٢) .

والرجاء في الله ليس مجرد تطلع لا يتجاوز دائرة الرغبات ، والتطلعات ، وإنما هو عمل وجهد والتزام ، ليكون الإنسان أهلاً لهذا الرجاء ، وهذه حقيقة قررها القرآن الكريم ؟ إذ يقول تعالى : (إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا ، وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم)^(٣) كما قال تعالى : فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)^(٤) ويقول تعالى : (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم)^(٥) .
وقد رسم القرآن الكريم عدة ملامح لمن يرجون الله .

(١) الكهف / ٤٦ .

(٢) النساء / ١٠٤ .

(٣) البقرة / ٢١٨ .

(٤) الكهف / ١١٠ .

(٥) العنكبوت / ٥ .

اتخاذ الأسوة الحسنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدرك قيمتها هؤلاء الذين تعلق وجاؤهم في الله يقول جل شأنه : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً)^(١) (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر)^(٢)

٨ - لفظ الجلالة « الله » مضمونه وهؤداه

المحور الثاني الذي تدور عليه كلمة التوحيد هو لفظ « الله » أشرف الأعلام في تعبيره الصادق والدقيق والشامل عن الذات الإلهية السامية . ويقول عنه علماء اللغة : إنه أعرف المعارف ، وذلك لأنه بمجرد التلطف به ينطبع في الذهن المعنى العظيم ، الذي يحفز الإنسان إلى العبودية الصادقة .

وهو مشتق مادة « أله - ياله » وهي المادة الدالة على العبودية في أجلي صورها وانتهى في تطوره اللغوي إلى هذه الصورة التي تعني المعبود بحق ، وكون هذا العلم في صورته النهائية يأتي مبدوءاً بأل الدالة على الحضور ، مختوماً بالهاء الدالة على الغيبة وكأن المراد في النهاية الحاضر في كل وقت الغائب عن مستوى إدراك البصر ، (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير)^(٣).

(١) الأحزاب / ٢١ .

(٢) المتحنة / ٦ .

(٣) سورة الأنعام / ٣ .

يقول سيبويه : واعلم أنه لا يجوز لك أن تنادى إسماً فيه الألف واللام البتة ، اللهم إلا أنهم قالوا يا الله اغفر لنا . وذلك من قبل أنه إسم يلزمه الألف واللام لاتفارقانه ، وكثر في كلامهم ، فصار كأن الألف واللام فيه بمنزلة الألف واللام التي من نفس الكلمة « كما يقول : وكان الإسم - والله أعلم - أله ، فلما أدخل فيه الألف واللام حذفوا الألف ، وصارت الألف واللام خلفاً منها ، فهذا أيضاً يقويه أن يكون بمنزلة ما هو من نفس الحرف ، ومثل ذلك أناس » (١) .

ويقول المبرد في دخول ياء النداء على لفظ الجلالة مع بقاء أل : ولذلك قالوا : يا الله اغفر لنا لما كانت في اسم لاتفارقه ، وثبتت في الاستفهام فعلموا بها ذلك (٢) .
ومن الخصائص اللغوية لهذا اللفظ .

- مجيء همزته للقطع وللوصل ، تقول : والله أو بالله كما تقول : يا الله (٣) .

- تدخل اللام على اسم الله في القسم بمعنى التعجب مثل : لله ما رأيت كاليوم قط .

- تلحق بآخره الميم المشددة عوضاً عن ياء النداء مثل اللهم (٤) .

(١) الكتاب ج ١ ص ٣٠٩ .

(٢) المقتضب ج ١ ص ٢٥٣ .

(٣) شرح الكافية للرضي ج ٢ ص ٣١ .

(٤) المقتضب ج ٤ ص ٢٣٩ .

وقد ورد ذكر لفظ الجلالة في القرآن الكريم نحو اثنين وسبعمائة وألفي مرة .

وقد جاء بصيغة الرفع في ٩٨٠ موضعاً .

وجاء بصيغة الجر « ١١٢٥ » موضعاً .

وجاء بصيغة الفتح « ٥٩٢ » موضعاً .

وبصيغة « اللهم » خمس مرات جاءت في السور الآتية على الترتيب .
قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء^(١)
(اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء)^(٢) (وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)^(٣) (دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام)^(٤) (قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك)^(٥) .

وتردد اللفظ بصيغة الجر أكثر من غيره ؛ لأن استخدامات هذا اللفظ العظيم لغزياً تتطلب إضافة غيره إليه ، إما حروف قسم ، أو ألقاظ تفيده التنزيه ، أو حروف جر ذات معان خاصة تكشف عن أهمية ما دخلت عليه .

(١) آل عمران / ٢٦ .

(٢) المائدة / ١٤٤ .

(٣) الأنفال / ٣٢ .

(٤) يونس / ١٠ .

(٥) الزمر / ٤٦ .

وكثرتها في حالة الرفع ؛ لأنه محور المعنى في الجملة ، ومداره في أغلب الأحيان .

ووروده في حالة الفتح أقل من غيرها ؛ لأن حالة الفتح في اللسان العربي تعنى أن الإسم المفتوح دلالة غير أصيلة أو غير أساسية في الجملة إلا في حالات معينة مثل اسم إن ونحوه كان ، ومفعولى ظن وأخواتها .

وأما لفظ « اللهم » فكان استخدامه قليلا بهذه الصورة ؟ لأنه كان اللفظ الذى شاع استخدامه عند العرب قبل الإسلام ، حتى إنهم اشترطوا على النبي أن يكتب الاسم العظيم بهذه الصورة في ميثاق الحديبية ، ومن هنا كان استخدام القرآن الكريم له بقدر .

وهناك أمر آخر يتصل بهذا الإسم الكريم وهو أن القرآن الكريم يصفه في مواضع مختلفة بالبركة ومن ذلك قوله تعالى : (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام)^(١) .

وأمر آخر . . .

من حيث المؤدى والمضمون وهو أن هذا اللفظ بهذا الإيحاء الذى أشرنا إليه ، وبهذه الدقة البالغة التى وصفناها ، وبهذا الأداء الذى لا لبس فيه ولا غموض ، وبهذه الدلالة على ذات خالق الوجود بما يحيط بها من صفات الكمال والسمو التى تملأ النفس هيبة وإجلالا

(١) الرحمن / ٧٨ .

وإكباراً يعد من هذه النواحي كلها - من مميزات اللسان العربي ، ولم يوجد له نظير في أى لسان آخر من ألسنة البشر المنتشرة على الأرض بحيث يستوى مع اللفظ العربي بمزاياه ، ومبلغ ما تصل إليه لغة من اللغات في التعبير عن لفظ الجلالة أن تختار لفظاً معبراً عن قوة غامضة ، أو غيب عام ، أو مؤثر أسطوري بحيث لا يجد المتلفظ به القداسة التي يحسها في أداء اللفظ العربي .

ومن هنا جاء اللفظ العظيم بكل أبعاد سمو في التعبير والوظيفة اللغوية حتى صار آية الآيات ، ومثل الأمثال ، والأساس الثاني الذي تقوم عليه شهادة التوحيد .

٩ - خصائص العقيدة الإسلامية

على ضوء البيان الذي فصلته حول العقيدة في الإسلام ، وحول كلمة الشهادة : مضمونها ومحتواها ، نستطيع أن نستعين بما سبق لكي نبرز عدداً من الخصائص لهذه العقيدة الكريمة وتلك العروة الوثقى .

في مقدمتها . . أنها فطرة .

فعندما دعا الإسلام الناس على ألسنة الرسل جميعاً إلى الإيمان بالله ، والعبودية له وحده كان لهذه العقيدة صدى في أعماق فطرة البشر ، فهم يؤمنون بالخالق ، القوى ، القادر ، العليم بكل شيء ، وأنه وحده يجب أن يعبد ، ولأجل هذا وصف الله دينه بقوله : (صبغة

الله ومن أحسن من الله صبغة) (١) كما قال (فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها) (٢) ووصفها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله فيما يرويه البخارى : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » .

وتحدث القرآن الكريم عن أصل الفطرة ، وكيف غرست في البشر ، فقال تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) (٣) .

وفطرية العقيدة دليل واقعيتها ، ورسوخها ، وتقبل الناس في يسرها ، كما أنها عنصر هام في تأثيرها في الأخلاق والسلوك .

وحوار القرآن الكريم للمشركين ، وتقديم هذه التساؤلات : (أفى الله شك) (أإله مع الله) (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ؟ (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) - يؤكد أن لها صدى في أعماق البشر يدفعهم إن استقامت فطرهم إلى الجواب السليد .

ولا يصرف الإنسان عن عقيدة الفطرة إلا أهواء غالبية ، أو نزوع إلى تقليد الآباء والأجداد ، لا يتيح للإنسان فرصة التفكير المجرد ،

(١) البقرة / ١٣٨ .

(٢) الروم / ٣٠ .

(٣) الأعراف / ١٧٢ .

أو التعصب لرأى معين ، أو أفكار ينشأ عليها منذ طفولته في بيئته ،
فتمس ستارا يحول بينه وبين الحق^(١) .

ثانيا : بساطتها .

كل العقائد السائدة في محيط البشر ، والتي توجه حياتهم وسلوكهم
تدور في سلسلة معقدة من التصورات الغامضة ، والأفكار المهمة
حتى نجد كثيراً من المؤمنين بغير دين الله ، أو برسالات حرفت ،
يأخذون العقيدة قضايا لا يملكون مناقشتها أو الحوار حولها ، وقد
يربحون أنفسهم بأنها قضايا لا تناقش .

وكان أصحاب الأديان الوثنية على امتداد قرات التاريخ ، ومعهم
ما حرف من رسالات السماء يلجئون إلى الفن المسرحي ، ليستعينوا
به في حل عقد الدين عندهم ، والتي لا يستطيعون تبسيطها .

ولأجل هذا لم ينتشر الفن المسرحي في أدب العرب منذ العصر
الجاهلي ؛ لأنهم وهم ورثة الحنيفية لم يجدوا في دينهم الموروث عن
إبراهيم ، والذي حرفوه بادعاء الوساطة أو الشفاعة ، أو في الرسالة
التي جاء بها محمد عليه السلام لتقوم حنيفيتهم ، لم يجدوا في هذا
ولا ذاك ما يدعو للخيال المسرحي ، كما فعل المصريون القدماء ،
أو اليونان ، أو الرومان ، أو أوروبا في العصور الوسطى ، والحديثة .

(١) مما يؤكد تاريخ العرب قبل الإسلام أن جماعة منهم ، وهم المتحرفون ،
عرفوا بفطرتهم السليمة توحيد الألوهية ، ومقتوا وساطة اللات والعزى ومناة وتألبيها
لتشفع لهم عند الله ، ومنهم زيد بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وكثير من أهل البادية ،
لأن الفطرة في البادية كانت أقوم .

ولأجل هذا وصف الله دينه بالحنيف ، وقال : (فأقم وجهك للدين حنيفاً) كما قال : (ديناً قيباً ملة إبراهيم حنيفاً) وكما جاء في الحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة ، ليلها كنهارها لا يعيش عنها إلا هالك » .

٣ - التناسق بين عناصرها .

فالجانب الإلهي متى استقر صحيحاً في أعماق الإنسان ، يستلزم فهماً صحيحاً للنبوات ، ومهمة الأنبياء ، وآياتهم التي أيدوا بها ، وصفاتهم التي ينبغي أن يكونوا عليها ، كما يستلزم إيماناً راشداً بالسمعيات ، وقد أثبتنا حقيقة هذا التناسق عند تناولنا لكلمة التوحيد .

٤ - لها آثار بالغة العمق في الأخلاق والسلوك .

ولا تجد عقيدة من عقائد البشر لها التأثير العميق في رشد واستقامة ، كما تجد ذلك في عقيدة الإسلام ، وهذه قضية سنتناولها بالتفصيل في الفصل الأخير من هذا الكتاب .

٥ - نشأتها من خلال التفكير والنظر ، والسير في الأرض .

وهذه أبرز سمة يتميز بها دين الله ، شواهد مستمدة من الواقع الكوني الذي يعيش فيه الإنسان ، ودلائله مستمدة من آيات الله ، وبديع صنعه في هذا الوجود كما قال جل شأنه في كتابه (سريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)^(١) والأرض التي تستنبت فيها هذه العقيدة فطرة خصبة بريئة من التعصب والهوى .

(١) فصلت / ٥٣ .

فهي إذن لم تظهر في ظل فكر بشري ، أو فلسفة معينة يقدمها
البشر ، ولم تكن صنع هوى إنسان يريد الزعامة والتسلط على أخيه
الإنسان في هذه الأرض .

٦- مسألتها للعقول الصريحة ، وأصحاب العقيدة الإسلامية هم
أولو الألباب .

العقيدة الإسلامية وأولو الألباب :

كيف جاء هذا الارتباط ؟ وما منشؤه ؟ وما علاقة العقيدة القويمة
بأولى الألباب . هذه قضية قرآنية نلرك أبعادها من خلال تتبعنا
لحديث القرآن الكريم عن أولى الألباب . وبها يتأكد أن العقيدة
من الإسلام عقل سليم ، ومنطق مستقيم وما جاء في مجال العقيدة
في النصوص الصريحة في الكتاب العزيز ، والسنة الصحيحة لا يخرج
عن هذا الحد الراشد الذي أشرنا إليه .

ولأولى الألباب في تقديري بعد أعمق من عبارة أصحاب العقول ؛
إذ أنها تعني أصحاب العقول الواعية ، التي تعيش قضايا الحياة والوجود
في يقظة تامة ، ورشد وسداد .

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً .

وكلها تقترن بحقائق الإسلام الأساسية ، وقضاياه الكبرى ،
وتوجيهاته المؤثرة .

فهم أصحاب الذكر والفكر والاعتبار ، وأدنى الناس إلى الموعظة ،
والانتفاع بالآيات .

يقول تعالى : (هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب)^(١) ويقول تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب)^(٢) ويقول : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب)^(٣) ويقول : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى)^(٤) كما يقول : (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب)^(٥) وقال أيضاً : (قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب)^(٦) ويقول جل شأنه (لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)^(٧) .

وهم أكثر الناس إدراكاً لأهداف التشريع الإسلامي قال تعالى : (ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون)^(٨) .

ويبدو حكمة أولي الألباب ، ونفاذ بصيرتهم في مجال العقيدة ، وذلك لما تتسم به العقيدة في الإسلام من الحكمة والتعقل والرشد .

-
- | | |
|------------------------------|----------------------|
| (١) إبراهيم / ٥٢ . | (٢) ص / ٢٨ . |
| (٣) البقرة / ٢٦٩ . | (٤) يوسف / ١١١ . |
| (٥) الرعد / ١٩ . | (٦) الزمر / ٩ . |
| (٧) آل عمران / ١٩٠ ، ١٩١ و | (٨) البقرة / ١٧٩ . |

فهم مطالبون بالتقوى لأنهم أكثر الناس إدراكاً لهذه المنزلة العالية من منازل الإيمان واليقين ، فيقول تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب)^(١) ويقول : (فاتقوا الله يا أولى الألباب)^(٢) .

وإذ يوجه القرآن الكريم الناس إلى العبودية الخالصة لله تعالى وحده ، ويحذرهم من الطاغوت داعياً لهم إلى اجتنابه يصف هؤلاء الذين حافظوا على مقام العبودية الصحيحة بأنهم مهتدون ، وأنهم أولو الألباب فقال تعالى : (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله لهم البشرى ، فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)^(٣) .
ونلاحظ من هذه الآية صفة هامة تميز بها العابدون أولو الألباب ، وهي استقامة منهج الاستماع في سلوكهم ، وهذا أمر من الأهمية بمكان .

ولأولى الألباب موقف متميز من الآيات المتحدثة عن صفات الله ، وما فيها من تشابهات وهذا الموقف يتسم بالتفويض دون شغل العقل في قضية لا يملك سبر غورها ، ولا إدراك مداها ، ولا يخرج من البحث فيها إلا معنى وبلا طائل ، مقتضياً بما توحى به هذه الصفات

(١) البقرة / ١٩٧ .

(٢) المائدة / ١٠٠ . والطلاق / ١٠ .

(٣) الزمر / ١٧ ، ١٨ .

من جلال وكمال وكفى فيقول تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب
منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين
في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ،
وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقوون : آمننا به كل
من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب)^(١) .

(١) آل عمران / ٧ .

الفصل الثالث

العقيدة وأثرها في الأخلاق والسلوك

- ١- الإيمان بالسنن الكونية .
- ٢- العقيدة الصحيحة تدعم حقوق الإنسان (الحرية - الإنحاء - المساواة - الخطأ والتوبة) .
- ٣- الالتزام بالشريعة .
- ٤- مراقبة الله في السر والعلن .
- ٥- إحسان العمل .
- ٦- الهداية .
- ٧- التضحية والفداء .
- ٨- القصد والاعتدال .
- ٩- الصبر .

١ - الإيمان بالسنن الكونية

مما تثمره العقيدة القويمة في أخلاق المسلم وسلوكه تصويب نظرته للحياة ، فيؤمن بسننها ، ويربط المسببات بأسبابها .
والإيمان بسنن الله الكونية مظهر لصحة العقيدة ، ولا تستقيم العقيدة بدون هذا الإيمان .

وقد وعدنا الله تعالى بأن سننه الكونية إذا عرفناها ستوصل غير المؤمنين إلى الإيمان الصحيح فقال سبحانه : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)^(١) .

وعاتب المسلمين الذين قصرُوا يوم أحد في حق الإيمان بالسنن الكونية عندما تهاون الرماة في تنفيذ الأمر فأعطوا الفرصة للمشركين ، وتحولت المعركة لصالحهم ، وأحس المسلمون بمشاعر الحزن والوهن والضعف فقال لهم سبحانه ، مذكراً إياهم بضرورة الإيمان بسنن الكون ، وحرمة الأيام ودولانها فقال تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس)^(٢) .

بل إن الله تعالى أكد أن الإسلام الحق ، ورسالته الراشدة يعتمدان على الدين الحق أكثر من الخوارق ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام

(١) فعملت / ٥٣ . (٢) آل عمران / ١٣٧ .

١٤٠ والآية ١٣٨ (هذا بيان للناس وهدي وموعظة للمتقين) .

لا ينبغي له أن يجارى قومه فيما طلبوه من خوارق، وعليهم أن يتمسوا
الاقناع ، وأسبابه متوافرة من كتاب الله تعالى فيقول تعالى :
(وقالوا لولا نزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما
أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن
في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) (١) .

ثم قال تعالى لنبيه : (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت
أن تبغى نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتهم بآية ، ولو شاء الله
لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين) (٢) .
والتحذير من الجهل في القرآن لم يأت إلا بشأن نسيان السنن
الكونية .

فقال تعالى لنبيه نوح عليه السلام الذي طلب من ربه - بطريق
غير مباشر - الصفح عن ابنه فقال : (يا نوح إنه ليس من أهلك
إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن
تكون من الجاهلين) (٣) .

وقد سلك النبي عليه الصلاة والسلام منهجاً تربوياً في دفع أصحابه
إلى الإيمان بالسنن ، لكي ينأى بهم عن ربط حياتهم بخوارق
يفتظرونها .

رأى رجلاً يلازم المسجد للعبادة ، لا يكاد يبرحه ، فقال : من
يأتي لهذا الرجل برزقه ؟ قالوا : أخوه ، قال : أخوه أعبد منه .

(١) المنكيات / ٥٠ ، ٥١ . (٢) الأنعام / ٣٥ . (٣) هود / ٤٦ .

وجاء أعرابي تغالبه هجة البادية وأسلوبها في التصرف ، فقال :
من فيكم محمد ؟ وراها النبي عليه الصلاة والسلام فرصة متاحة للدرس
السنن الكونية ، فسأل الأعرابي : وأين ناقثك ؟ قال : تركتها بباب
المسجد وتوكلت على الله ، فقال : اعقلها وتوكل .

ففي هذه العبارة ، الوجيزة والمعبرة ربط النبي صلى الله عليه وسلم
بين قضيتين من قضايا العقيدة ، لا تتناقضان بل تتكاملان هما :
التوكل على الله والإيمان بالسنن الكونية أو الأخذ بالأسباب .

ومن هنا جاء في النصيحة النبوية الكريمة التي تكشف عن أسباب
القوة ليحرص عليها المؤمنون ، صارفة إياهم عما يشبط العزم ، ويوحى
بالحمول فقال : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف
وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ،
وإن مسك شيء فلا تقل لو كان كذا كان كذا ولما قل قدر الله
وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

والعمل الجاد في شريعة الإسلام تدفع إليه عقيدة هادية ، راشدة ،
ويعد من أعظم القيم في هذه الحياة يقول تعالى : (هو الذي جعل لكم
الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها ، واكلوا من رزقه وإليه النشور) .
وحديث التوكل الذي غفل بعض الناس عن معناه ، وفسروه بمعنى
يوحى بالتواكل ، والذي جاء فيه « لو توكلتم على الله حق توكله
لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » نرى فيه على
عكس ما تصور القوم ؛ إذ هو دعوة للعمل بمقتضيات السنن ؛

إذ جاء فيه تغلبو وتروح ، والغلبو والرواح حركة دائبة من أجل الرزق ، وليس فيها ما يدل على الكسل أو الخمول .

وقد سار عمر بن الخطاب على هذا النهج القويم ، فدعم قواعد الدولة الإسلامية العادلة بنظرة عميقة ، وأفق واسع ، قائم على أساس الإيمان بالسنن ، وذلك عندما دون الدواوين وأقام الشرطة ، ونظام البريد ، ومكافحة الآفات والمجاعات .

وله في هذا الصدد حكمة عظيمة ؟ ! إذ يقول رضى الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة !!

وله موقف عظيم في فهم السنن ، وإقامة السلوك على أساسها ، مصداقاً لما وجد أنه من عقيدة قويمه .

ذلك الموقف وهو على أبواب فلسطين ؛ ليوقع الصلح مع كبير أساقفتها ، وعلم بانتشار وباء الطاعون فتردد في الدخول حتى قال له بعض من معه : أتفر من قدر الله ؟ قال : بل نفر من قدر الله إلى قدر الله . وفي هذا الموقف ذكرهم عبد الرحمن بن عوف بحديث النبي صلى الله عليه وسلم في شأن وباء الطاعون ، والذي وضع به أساس الحجر الصحي ؛ إذ قال ما معناه . . . إذا ظهر الطاعون في بلد وأنتم فيها لا تخرجوا منها وإن كنتم خارجها لا تدخلوا فيها .

وعندما غزا المجتمع الإسلامي الفكر الجبرى ، والذي حول عقيدة الكثيرين عن مسارها الصحيح وجدنا دعوة التراخي ، والكفر

بالقوانين التي أقام عليها كونه العظيم ، وسمعنا مثل هذا الشاعر :
جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لوزق ويرزق في غشاوته الخنسين
وسمعنا الآخر ، القائل بالجبر ، والساخط على ربه الذي كلفه
وهو مجبور فيقول :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبسل بالماء
والإسلام الحق ، وعقيدته الراشدة برئ من هذا ومن ذاك .

٢ - العقيدة الصحيحة تدعم حقوق الإنسان

قد سبق لنا حديث فيما وراء « لا إله إلا الله » من معطيات ،
عظيمة الدلالة .

في مقدمتها الحرية التي ينعم بها الإنسان في أوسع مدى عندما يتجه
بعبوديته لله وحده ، وتكون « لا إله إلا الله » الحكم في مقاله
ومسلكه ، فالعبودية لله ، لا تسمح بعبودية لسواه ، وتدفع الإنسان
إلى الشعور بالقوة والاعتزاز في مواجهة البشر جميعاً .

والعبودية لله وحده ، تذيب الفوارق بين الطبقات سواء أكانت
في الجنس أو اللون ، أو المنزلة الاجتماعية « ليس لعربي فضل على
عجمي إلا بالتقوى » .

وهكذا تدعم عقيدة الإسلام حقاً آخر من حقوق الإنسان على
الأرض وهو المساواة ، وفي سبيل دعم هذا المبدأ وتأكيدده قال
صلى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه » .

والعقيدة تدعم حق الإخاء بين البشر ؛ إذ تمنحهم التصور الصحيح للحياة والناس ومفشاً الحياة ومنهاها ؛ إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » .

والقرآن الكريم أكد هذه الأخوة عندما يتحدث إلى البشر عن أصل أخوتهم ، فيقول : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)^(١) .

كما أكد حديث الأخوة عندما وصف الرسل بالأخوة لأقوامهم الذين أرسلوا فيهم ، فيقول : « وإلى عاد أخاهم هوداً » (واذكر أخا عاد) (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) (وإلى مدين أخاهم شعيباً)^(٢) . وهناك حق آخر تمنحه عقيدة الإسلام للإنسان ، فلا يمنحه هذا الحق تشريع بشري .

وهو حق الخطأ ؛ إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » فالخطأ من حق الإنسان لما ينازعه من شهوات غالبة ، وأهواء ضارية ، وجهالة لاهية ، وأعطاه لهذا حق التوبة ، وأكد الله له في كتابه أنه التواب ؛ إذ يقول : (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات)^(٣) .

(٢) سورة هود / ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤

(١) سورة الحجرات / ١٣

(٣) سورة الشورى / ٢٥ .

ويؤكد القرآن الكريم منزلة العبد التائب ، ودرجته العظيمة عند الله ، وأنه يسمى الأبواب كما أكدت الأحاديث أن رب العزة يفرح بعودة عبده التائب .

ولا يؤاخذ الإنسان على خطئه إلا بالاستمرار عليه والتمادي فيه . وعند هذا يتحول الخطأ إلى خطيئة .

وفي غيبة العقيدة الصحيحة يفسد التصور ، وتضطرب الأخلاق ، وينحرف السلوك وتهدر حرية الإنسان فيصبح عبداً للموتى ، وللأوهام وللمشعوذين والدجالين وتضيع المساواة ، حيث يتحول المجتمع إلى طبقات دينية ، ويفرض السلطان الروحي على العامة والدهماء .

ويفتقد الناس الإخاء الإنساني ؛ إذ أنه متى انقطعت الصلة بالله ، قطعت وراءها كل الروابط والصلات .

ويفسد تصور الإنسان ويغيب عن وعيه الإسلامى المعنى الصحيح للخطيئة والمتاب .

٣ - الالتزام بالشرعية

إن الإيمان الصادق بالله ، والعبودية الخالصة له وحده ، تنهى بالمسلم فى مجال السلوك إلى الثقة المطلقة فيما يأمر به الله ، وينصح به ، ويدعو إليه ، ويحذر منه .

ومن هذا المنطلق لابد أن يلتزم ، فيمثل للأمر وينفذه ، ويتبعه عما نهى الله عنه ، ضرورة أن العليم الحكيم ، الخبير ، الذى ربي الوجود بنعمه وفضله لا يأمر إلا بما يصلح ويسعد ، ولا ينهى إلا عما

يفسد ويشقى (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون .
قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ،
وادعوه مخلصين له الدين »^(١) .

ومن هنا فكل ما جاء به القرآن من أحكام وشرائع نجد الآيات
المتضمنة لذلك قد بدئت بنداء المؤمنين أو ختمت بشرط الإيمان
مما يؤكد أن العقيدة السليمة تثمر العمل الصالح ، وعندما نرى العقيدة
غير مثمرة في الخلق والسلوك دل ذلك على انحرافها عن الحادة ،
وبعدها عن الطريق السوى .

وإذا فسدت العقيدة فسد تصور الإنسان وتفكيره ، وحقاق به
سوء عمله .

والنداء الغالب في القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا » لأنهم -
أعني أصحاب العقيدة السليمة - هم المعنيون بما في القرآن الكريم من
توجيه وتشريع ، وهو موجه لهم قبل غيرهم ألم يقل الله تعالى :
(هدى للمتقين)^(٢) وقال : (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام)^(٣)
وأقل منه نداء الناس الذين لم يملكوا العقيدة يوجهون إلى نصائح
عامة تلزمهم بالعقيدة السليمة وما وراءها من تبعات .

ونودى أهل الكتاب مرة واحدة في القرآن الكريم (يا أيها الذين
أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس

(٢) البقرة / ٢ .

(١) الأعراف / ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) المائدة / ١٦ .

وجوها فردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً (١) .

وفي الآية دعوة لهم إلى الإيمان بالقرآن الكريم ، وتحذير لهم من الكفر بالطاغوت .

وورد نداء الكافرين مرة واحدة ؛ إذ يقول تعالى ؛ (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم) (٢) .

وبقيت الأمثلة التي نسوقها بياناً للربط بين العقيدة والسلوك .

ويقول تعالى ؛ (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم) (٣) ويقول تعالى ؛ (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) (٤) .

ويقول تعالى ؛ (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون) (٥) .

وقال تعالى ؛ (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) (٦) .

وقال تعالى ؛ (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) (٧) .

وقال تعالى ؛ (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) (٨) .

(١) النساء / ٤٧ .

(٢) الأحزاب / ٧٠ ، ٧١ .

(٣) الأنفال / ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) البقرة / ٢٦٧ .

(٥) التحريم / ٧ .

(٦) آل عمران / ١٢٠ .

(٧) المائدة / ٩٥ .

(٨) البقرة / ٢٨٢ .

وقال تعالى : (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين)^(١)

وقال تعالى : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين)^(٢)

وقال تعالى : (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)^(٣) .

هذه أمثلة لتشريعات القرآن الكريم وتوجيهاته ، وهى تشير بوضوح إلى الارتباط الوثيق بين العقيدة والسلوك ، وأن صحة العقيدة تثمر الالتزام الراشد والصحيح بالدين وشريعته وهديه .

٤ - مراقبة الله فى السر والعلن

العقيدة الإسلامية التى يدور محورها على كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » تبدأ بالمعرفة الصحيحة بالذات العلية ، وتنتهى باليقين به ، فيظل بحكم هذه العقيدة وبسلطانها مراقباً الله وحده ، يرجو رحمته ويخشى عذابه ، ويظل وجدانه ممتلئاً بالشعور بهيبته وسلطانه . . فيقبل على الخير احتساباً لله ، ويتبعد عن الشر ابتغاء مرضاته ، ولا يحيد عن طريقه قيد أنملة . .

وكان المسلم فى العصر الأول تسره النصيحة بتقوى الله .

ومراقبة الله هى اللجنة الواقية التى يستعين بها المسلم فى رد غارات الإغراء والإغواء ، ليسلم له دينه ، وتستقيم خطته .

ومع استمرار المراقبة تسير حياة المؤمن بخطى معتدلة ، تلتزم الحادة ، لا تنحرف ولا تحيد حتى تبلغ غايتها .

(١) التوبة / ٦٢ . (٢) الأنعام / ١١٨ . (٣) الأنفال / ١ .

إن مراقبة الله هي الضوء الكشاف على الطريق ، تبصر المسلم بعثراته ، وتنبيهه إلى عقباته ، وبقدر ما يجعل المسلم في حسابه الخوف من الله ومراقبته ، يستحي من معصيته ، ويخجل من مخالفته ، والحياء من أعظم دلائل العقيدة ، وقالوا : « الحياء من الإيمان » كما جاء في الحديث : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها « لا إله إلا الله » وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من شعب الإيمان » وجاء في الحديث : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . إن الحياء بهذه المنزلة الخلقية الكبيرة ثمرة هامة من ثمرات العقيدة الراشدة .

٥ - إحسان العمل

تعد الأيدلوجية عند علماء الغرب والشرق هي الأساس لكل ما يصدر عن الفرد والجماعة من نشاط أو سلوك ، وعلى قدر استقامة الأيدلوجية التي تدين لها الأمة وقوتها واحكامها بقدر ما تتحرك الأمة على طريق الحضارة والمدنية .

والأيدلوجية مهما سميت لا يمكن أن تخلق المجتمع الفاضل ، اللهم إلا في خيال الفيلسوف الذي وضع أسسها ، وابتكر دعائها ، وذلك لأنها فكر بشري ، فيها هناته ، وضعفه ومن هنا قد تصنع التقدم المادى والعمرانى وتحقق في الوصول إلى السعادة النفسية ، والاستقرار المعنوى ، والأمن مع الذات ومع الناس .

لكن العقيدة الإسلامية ، وهي حق وصدق ؛ لأنها بيان حكيم من لدن العليم الخبير تكشف عن أبعاد الصلة بين العبد وربّه ، وبين

الإنسان وأخيه الإنسان ، وبينه وبين غيره من الكائنات . . . هذه العقيدة التي من شأنها أن تمنح الفرد المسلم تصورات صادقة ، منها كما أسلفنا مراقبة الله في السر والعلن .

ومنها إحسان العمل ، أي عمل ، للدين أعنى شئون العلاقة مع الله ، أو للدنيا أي في مجال العلاقات مع الناس تجد صاحب العقيدة يتجه دائماً إلى الإجابة ، وإبراز العمل في أقوم صورة وأحسنها .

ومن هنا تحدث القرآن الكريم عن الإحسان والمحسنين في نحو خمسين موضعاً بين فيها مكانتهم عند الله ، ومنزلتهم من النعم في رحابه لما أثمرته العقيدة القويمة فيهم .

يقول الله تعالى : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم)^(١) ويقول تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)^(٢) .

وكان الإحسان - وهو ثمرة العقيدة - هو الضابط الصحيح لقضية الحلال والحرام ، كما بينت هذه الآية .

كما يقول تعالى في ثواب المحسنين : (للذين أحسنوا الحسنى ، وزيادة)^(٣) .

وثواب المحسنين منه العاجل والآجل فيقول تعالى : (للذين أحسنوا هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين)^(٤) .

(٢) المائدة / ٩٣ .

(٤) النحل / ٣٠ .

(١) آل عمران / ١٧٢ .

(٣) يونس / ٢٦ .

والإحسان يلازم التقوى في أكثر الآيات التي ورد فيها ، وما ذلك إلا لأنه ثمرتها ، إذ التقوى الصورة المكتملة للعقيدة الإسلامية بما تتطلبه من عبودية وإخلاص وتوحيد يقول تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون)^(١) .

والإحسان بمعنى إجادة العمل واتقانه يستلزم الإخلاص ، والإنسان مطالب به في علاقته مع الله ومع الناس ، ومع عناصر الكون كله .

وقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان عندما سأله عنه جبريل فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فجعله مقصورا على جانب العبادة .

وليس هذا تخصيصاً لأمر شامل ؛ لأن العبودية - وقد أوضحنا أبعادها - تنظم علاقات الإنسان في الكون كله ، ولأجل هذا جعلها الله غاية لخلق المكلفين من مخلوقاته ، فقال سبحانه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

والإحسان مطلوب من المسلم في كل علاقاته الإنسانية سواء أكان أباً أم ابناً ، أم زوجاً ، حاكماً ، أو محكوماً ، في القول أو في الفعل ، وجاء في هذا المجال هذه التوجيهات القرآنية فيقول تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً)^(٢) كما قال في نصيح بنى إسرائيل في ميثاقهم المأخوذ عليهم : (وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحساناً ، وذى القربى ، واليتامى ،

(١) النحل / ١٢٨ .

(٢) الإسراء / ٢٣ .

والمساكين ، وقولوا للناس حسناً^(١) .
كما قال في نصيح المعتدلين من قوم قارون له : (وأحسن كما
أحسن الله إليك)^(٢) .

وهذه آية فيها دعوة للإحسان ، مبينة ما يترتب عليه من سد
الطريق على الأهواء ، وحماية المجتمع من الإغواء فيقول تعالى :
(وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن
الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً)^(٣) .

وكما أن إحسان القول فيه صيانة للمجتمع من البذاء والتبذل ،
والاستهانة بالقيم ، فأحسان العمل صورة مشرقة للأمة صاحبة العقيدة..
وجاء في ذلك توجيه النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب إذا
عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

وجاءت الدعوة إلى الإحسان في علاقات الإنسان مع الحيوان ،
والنبات ، والجماد ، ليأخذ المجتمع القائم على العقيدة الرشيدة صورة
سامية رفيعة ، يقول صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان
في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ،
وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

كما ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ما فيه إفساد للزرع أو
البناء ، أو تعذيب للطير والحيوان لما في ذلك من مجافاة لمنهج الإحسان.
فيذكر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الذي بلغ به العطش مبلغاً

(١) البقرة / ٨٣ (٢) القصص / ٧٧ (٣) الإسراء / ٥٣ .

كبيراً ، وعندما جاء إلى البئر فرأى كلباً يلهث السرى من شدة العطش ، فقال لقد بلغ العطش بهذا الكلب ما بلغ بي ، فنزل البئر وملاً خفه وسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له .

إنه صورة للإحسان النابع من قلب تحكمه العبودية لله وحده ، كما يفعل الرجل الذي يميّط الأذى عن طريق الناس ، رغبة منه في ألا يحلّ السوء بأحد .

٦ - الهداية

من أبرز آثار العقيدة الإسلامية في الأخلاق والسلوك . . . أنها تهدي ، وهدايتها في تقديري أنها تمنح الإنسان التصور السديد والصحيح للأشياء ، فيعرف مواطن الخير ، وتستبين له وجوه الحق ، ويكون على بصير بأسباب المخاوف والشور ، وبناء على هذا يرسم سلوكه وخطته في الحياة ومسيرته فيها على ضوء ما تهديه إليه عقيدته .

فالهداية حاسة أخرى يملكها المؤمنون الصادقون الذين صلحت عقيدتهم ، واستقامت مع الله خطتهم فإذا بهم - فيما يعملون - موفقون ، وفيما يقولون - مسددون .

من التوجيهات القرآنية السديدة : (واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم)^(١) .

فما العلم الذي تمنحه التقوى للمتقين ؟ إنه الإدراك السليم ، والمعرفة

(١) البقرة / ٢٨٢ .

الصحيحة بالأشياء فمع العقيدة الصحيحة ينزل الناس منازلهم ، ويمنح كل إنسان قدره ، ويعطى كل ذى حق حقه .

ويقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر عنكم سيئاتكم)^(١) .

وهكذا كما تبين هذه الآية تمنح العقيدة السليمة القائمة على الخوف من الله وحده صاحبها قدرة عقلية تمكنه من أن يميز بين الخبيث والطيب ، وأن ينأى بنفسه عن موضع فيه ريبة أو شبهة .

وجاء هذا المعنى في هذه الآية أيضاً ثمرة للعقيدة فيقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم)^(٢) .

وكما أسلفنا لا تثمر العقيدة هداية إلا إذا كانت قوِّمة ، بعيدة عن الزيف والدجل ، سائرة على منهج توحيد العبودية لله ، فإن شابهها انحراف ، أو زيغ تصبح كحاسة شلت ، أو كعين سلب بصرها ، أو كمولد للكهرباء اختلت أجزاؤه فلا يصدر عنه إلا الظلام القائم .

إن تأثير العقيدة في ترشيد صاحبها وحمله على الخير ، وصرفه عن الشر أمر لا ريب فيه وهي في حقيقتها مثوبة من الله لمن استقام إيمانهم ، وهي بعينها التوفيق الذى لا يكون إلا من الله ، كما لا يكون إلا لمن يستحقه ومن هو أهل له من عباد الله ، والذى لم يذكر في القرآن

(١) الأنفال / ٢٩ .

(٢) الحديد / ٢٨ .

الكريم إلا مرة واحدة على لسان نبي الله شعيب إذ قال : (وما توفيتي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب)^(١) .

وقد ربط القرآن الكريم الهداية بالإيمان الصحيح في موضع ، ونفاها نفياً قاطعاً عن غير المؤمنين في موضع آخر ، وذلك لكي تستقيم الحجة من وجهيها .

يقول تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار في جنات النعيم)^(٢) .

وجاء نفي الهداية عن غير المؤمن في هذا الموضع : (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ، وهم عذاب أليم)^(٣) .

كما قال تعالى : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ، ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم سبيلاً)^(٤) وقال في السورة نفسها : (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم طريقاً)^(٥) .

فقد أكدت هاتان الآيتان ما أكدته الآية السابقة من أن فاسد العقيدة تعطلت فيه حاسة الهداية .

كما فصل هدايته سبحانه للمؤمنين بقوله : (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم)^(٦) .

(٢) يونس / ٩ .

(٤) النساء / ١٣٧ .

(٦) المائدة / ١٦ .

(١) هود / ٨٨ .

(٣) النحل / ١٠٤ .

(٥) النساء / ١٦٨ .

فأهداية إلى سبيل السلام وإلى الصراط المستقيم نتيجة لازمة من قانون الله لاتباع المنهج الذى اختاره ، وارتضاه .

وإذا كانت الهداية الممنوحة لأصحاب العقيدة تعنى فى الدنيا البصر بالحلال والحرام ، ومواقع الخير والشر ، فإن منها هداية فى الآخرة لمكان النعيم هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله دون عقيدتهم ، فيقول سبحانه : (والذين قتلوا فى سبيل الله ، فلن يضل أعمالهم . سيديهم ويصلح بهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم)^(١) .

وهذه الهداية الإلهية التى تشير إليها الآيات ثمرة للإيمان الصحيح ، تسبقها هدايات أخرى تختلف عنها ، فى أنها ممنوحة للجميع ، لا يختلف فيها إنسان عن إنسان مثل هداية الفطرة ، إذ فطر كل بنى الإنسان على الإيمان بالربوبية ، وهداية السمع والبصر والعقل ، يقول تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)^(٢) (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)^(٣) وهناك هداية ثالثة وهى هداية الرسل الذين أرسلهم الله كما قال : (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً)^(٤) .

والانتفاع بهذه الهدايات بالاستمساك بالعقيدة الصحيحة ، والتزام مناهج الشرع ينشأ عنه . كما أسلفنا . المثوبة بالهداية الرابعة التى بسطنا القول فيها .

(٢) الشمس / ٨ ، ٧ .

(٤) النساء / ١٦٥ .

(١) محمد / ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٣) الإنسان / ٣ .

٧ - التضحية والفداء

العقيدة الصحيحة ، الناشئة عن تعقل وبصيرة ، والتماس لبراهين القاطعة من القرآن الكريم ، وكتاب الكون العظيم ، لا بد أن يصاحبها مع هذا الوضوح قوة اليقين ، وانتفاء الارتياب .

ونتيجة لهذا فصاحب العقيدة لا يقعد عن تضحية ، ولا يقصر في بذل ، ولا يقبض يده عن عطاء وإيمانه بالعطاء لا حدود له حتى لو كلفه هذا البذل نفسه .

وقد بين القرآن الكريم ارتباط العقيدة بالعطاء السمع بلا حدود فقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون) .^(١)
فمقياس صدق العقيدة ، كما تحدده الآية يبدو في الالتزام بسنة الجهاد .

والصفقة الإلهية مع أصحاب العقيدة القويمة ، أساسها بذل هؤلاء لأغلى ما يملكون فيها ليكونوا أهلاً لدار النعيم التي سيورثها الله للمتقين ، فقال تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم)^(٢) .

(١) الحجرات / ١٥

(٢) التوبة / ١١١ .

كما كشف القرآن الكريم عن مكانتهم في البذل والعطاء ،
وما استحقوه لأجلها من منزلة عند الله ، فقال تعالى : (الذين آمنوا
وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند
الله ، وأولئك هم الفائزون . يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان
وجنات لهم فيها نعيم مقيم) (١) .

وجاء هذا البيان في هذه الآية رداً على تصور قريش أنه يكفيهم
للنجاة عند الله سقايهم للحجيج ، وقيامهم على شئون البيت الحرام ،
وأن الإيمان ادعاء بلا بلاء ، إذ قال تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج
وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في
سبيل الله ، لا يستون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين) (٢) .

وفي كل موطن في القرآن الكريم فيه بذل وعطاء ، أو فيه تضحية
وفداء تجدد ذلك كله يتم في رحاب العقيدة : (وقال رجل مؤمن من
آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد
جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك
صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف
كذاب) (٣) .

والجهر بالحق في مواجهة الظلم والظالمين من أعظم مواقف الفداء
التي تدفع إليها دائماً عقيدة قوية وإيمان مستقيم .

(٢) التوبة / ١٩ .

(١) التوبة / ٢٠ ، ٢١ .

(٣) غافر / ٢٨ .

وحديث القرآن في سورة غافر عن مؤمن آل فرعون ، وتصديقه
لبغى القوم في حكمة بالغة ، وموعظة مؤثرة ، وشجاعة نادرة دليل
صريح على ما تدفع إليه العقيدة من تضحية .

ومواقف الرسل من أقوامهم ، صورة مشرفة للعقيدة حين تدفع
صاحبها إلى البذل والعطاء .

وبمقدار ما يملكه صاحب العقيدة من يقين يكون مدى بذله
وعطائه .

ومعنا مثلاًن :

أولهما : إبراهيم عليه السلام يرى في المنام أنه يذبح وحيدته
إسماعيل ، فيسارع إلى التنفيذ في يقين عظيم ، وإصرار على الاستجابة
برغم فداحة التضحية ، وكان هذا قمة اليقين في ذلك ، والرضا بما
يحكم به ؛ ولذا قال الله تعالى متحدثاً عن عطاء الأب والإبن جميعاً
(فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرويا
إنا كذلك نجزي المحسنين)^(١) .

وهنا يمر إيمان إبراهيم بامتحان عصيب ، ويواجه بفداء فوق
طاقة البشر ، ويتجاوز إبراهيم هذا الامتحان بما وصفه الله به من
صدق وإحسان .

ثانيهما : أم موسى : تملك إيماناً قوياً بالله ، وفي أعصب موقف
يمر بقلب الأم ؛ إذ تحس بالأخطار تحيط بمولودها ، ويأتيها وحى

(١) الصافات / ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

الله يدعوها إلى سلوك سبيل يكفل الأمن لمن تخاف عليه ، وفيه في الوقت نفسه ابتلاء لإيمانها بالله ، وثقتها فيه ، وفي هذا الوحي أمران ، ونهيان ، وبشريان (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه ، فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين)^(١) .

ووضعت طفلها في التابوت ، ثم ألقته به في اليم ، وحقق الله وعده ، فربط على قلب الأم فاطمأنت وهياً للطفل الأمن ، ويسر له أمر العودة ليرضع منها ، ومع العودة البشرية بالرسالة .

وهكذا بالعقيدة الصحيحة ، تحيا القيم ، وتعز الأمم ، حينما يقاسون مرارة التضحية ، ويعانون بلاء البذل والفداء .

أما أصحاب العقيدة الخربة ، والإيمان السقيم فإنه يموت بين جوانحهم بواعث العطاء ، ودوافع الفداء ، وقد قالها المنافق القديم رأس المنافقين : عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي في الطريق إلى أحد ، قال : ما ندرى علام نقتل أنفسنا هنا أمها الناس ؟ ! ثم رجع ، ورجع معه ثلاثمائة هم أهل النفاق في المدينة .

وقال تعالى في وصف هذا الضعف في قلوب المنافقين ومن فسدت عقيدتهم : (ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة ، وذكر فيها القتال رأيت الدين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ، طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم)^(٢) .

(١) القصص / ٧ .

(٢) محمد / ٢٠ ، ٢١ .

ذلك لأن ضعيف الإيمان فاسد العقيدة ، فقد الباعث ، ومات في ضميره الدافع وحيل بينه وبين الغاية الشريفة التي تحرك إلى البذل ، وتدفع إلى العطاء .

٨ - القصد والاعتدال

العقيدة الصحيحة تكسب صاحبها التصور الصحيح ، والإدراك الرشيد .

هذه قضية عرفناها .

ومن هنا صاحب العقيدة يسير في مسلكه الديني على منهج صحيح . فهو لا يغلو ولا يتنطع ؛ لأن الغلو بعد عن الحق ، وتجاوز لحدود العدل ولهذا نهى الله تعالى عنه أهل الكتاب فقال : (يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل)^(١) .

كما قال تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)^(٢) .

فهذه الآية تكشف عن أبرز جانب من جوانب الغلو وهو العقيدة ، حيث غالى النصارى في شخص المسيح حتى تصوروا أنه ابن الله مع أنه عبده ورسوله .

(١) المائة / ٧٧ .

(٢) النساء / ١٧١ .

فعندما تستقيم عقيدة الإنسان ، يستقيم دينه كله بعبوديته لله ، لأن توجيه أى مظهر من مظاهر العبودية خروج عن القصد والاعتدال يقول تعالى : (وإذا غشيهم موج كالأظلال دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر ، فهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور)^(١) .

فالمقتصدون ظلوا على إخلاصهم واعتدالهم . وعلاقته بالله وثيقة وقوية إذا خالطه الإغراء لا يلبث أن يتيقظ ويعى ، ومن هنا عندما أخبرنا الله عن أهل الجنة ، الذين جحدوا النعمة ، وبدلوها كفرآ ، فذكر أن واحداً منهم استيقظ ضميره ووعى ، من هو ؟ إنه الأوسط أى الأعدل والأخير ، والأكثر معرفة بالله (قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين)^(٢) ..

ويؤدى شعائر العبادة بيسر واعتدال ، ثقة منهم بأن المجهود نفسه فى السير ، يضيع جهده ، ولا يصل إلى غايته ، وأن التشدد فى الدين مهلكة .

فى كل مسالكهم أعقل من أن يسرفوا ، وأكرم من أن يقتروا . وصف الله عباده الذين صحت عبوديتهم لربهم فقال : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً)^(٣) . والخروج عن القصد دليل على فساد الاعتقاد ، إذ يقول تعالى :

(١) لقمان / ٣٢ . (٢) القلم / ٢٨ ، ٢٩ . (٣) الفرقان / ٦٧ .

(إن المبشرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً)^(١)
فأخوة المبشر للشيطان كما تذكر الآية تؤكد فساد عقيدته ، كما
تؤكد ضلال سعيه .

إن القصد والاعتدال صورة من صور نجاح العقيدة النقية في
تقويم السلوك .

٩ - الصبر

أصحاب العقيدة الصحيحة ، يملكون طاقة لا حد لها من الفكر
القويم ، والنظر الصائب ، ولذا كل من يرفع شعار العقيدة الخنيفية ،
لا بد له أن يوطن نفسه على تبعاتها ، وينهض بأعبائها .. وأصحابها أصحاب
همم عالية ، وطلاب منازل رفيعة .

ومن هنا من يرفع شعار الإيمان لا يترك ودعواه ، واقتضت حكمة
الله أن يتلى تمحيصاً له ، واختباراً ليقينه .

يقول تعالى متحدثاً عن أصحاب العقيدة : (أحسب الناس أن يتركوا
أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ،
فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين)^(٢) .

فابتلاء المؤمن تمحيصاً لعقيدته ، وفتنته بالدنيا ، وما فيها من زينة
ومتاع أو محن وآلام - منهج إلهي حكيم في إعداد المؤمنين لأداء رسالتهم
في الحياة يقول تعالى (ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)^(٣)
(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم)^(٤) .

(٢) النكبات / ٣٤٢ .

(٤) محمد / ٣١ .

(١) الإسراء / ٢٧ .

(٣) آل عمران / ١٤١ .

وصاحب العقيدة في مواجهة الابتلاء - إن صحت عقيدته -
يواجهه بسلاح الصبر .

وهذا الخلق ناشئ عن ثقة قوية فيما يقضى به الله ، ويقدره ،
وأن الحكمة الإلهية وراء قضائه الحكيم خير المؤمن وبره ، وإن كان
في ظاهره مرارة أو ألم ، فثقة المؤمن أن المرارة زائلة ، وأن الألم هين
بجانب ما وراء القضاء الإلهي من خير وبر .

ولذلك يضع المؤمن في حسابه هذا القانون الإلهي الحكيم .
(وعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (١) ،
(كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً
وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم
وأنتم لا تعلمون) (٢) .

والآية الأخيرة تؤكد للمؤمن ، صاحب اليقين أن الحكمة العظيمة وراء
القضاء الإلهي العادل إن عزبت عن أفهام البشر ، يعلمها علام الغيوب .
ومن هنا جاءت النصيحة الإلهية لأصحاب العقيدة تدعوهم لأمرين :
أولهما : الصبر ، وثانيهما الصلاة ، مؤكدة معية الله للصابرين .

ومن هم الصابرون كما عرفت بهم الآيات ؟
هم الذين يسلمون الأمر لله عند المحنة ، واثقين أن مرجع الجميع إلى الله .
وهؤلاء يستحقون المنزلة التي ذكرتها الآيات : (يا أيها الذين آمنوا
استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن
يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ، ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم

(٢) البقرة / ٢١٦ .

(١) النساء / ١٩ .

بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ،
وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه
راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم
المهتلون (١) .

وميدان الابتلاء لأصحاب العقيدة متعدد النواحي ، فهناك ابتلاء
بالخوف وهناك ابتلاء بالجوع ، وهناك ابتلاء بنقص الأموال ،
وهناك ابتلاء بفقد عزيز أو قريب ، وهناك ابتلاء بذهاب الثمار
وتلف الزروع .

والحياة الدنيا على سعتها في تصور صاحب العقيدة السليمة ، وفي
حساب المؤمن الواعي دار ابتلاء بكل صروفها ، وعلى اختلاف
ألوانها ، ففي كل موقع فتنة ، وفي كل خطوة بخطوها الإنسان ابتلاء ،
والله تبارك وتعالى يختار لكل عبد من عباده بلاءه ، ومن الناس من
يبتليهم الله بالخير ، ومن الناس من يبتليهم الله بالشر ، كما قال تعالى :
(ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (٢) .

وهذا الفهم الصحيح في مواجهة قضايا الحياة ، وأحداثها المتنيرة ،
وقائعها المثيرة المذهلة يجعل حياة المؤمن هادئة ، هائلة مستقرة ،
يحكمها نمط واحد ويفسرها فهم واحد ، وتصور واحد ، نابع من
عقيدة قويمة هي أن المعبود بحق هو الله ، له الحول ، والطول ، وله
الخلق والأمر ، ومن عباده عباد له لا يعيز بعضهم عن بعض إلا قوة
العقيدة ، واستقامة السلوك .

(٢) الأنبياء / ٣٥ .

(١) البقرة من ١٥٢ إلى ١٥٧ .

وأن المعبود الواحد عندما يقضى لا مرد لقضائه ، وفي قضائه دائماً
الحق والخير والعدل .
وماذا بعد هذا كله ؟

حسب المؤمن الصادق أن عقيدته القويمة تمنحه الرضا ، فهو
راض عن نفسه ، وعن حواه ، وعن رسالته في الحياة ، تنمره
سعادة من الداخل ، تجعل الحياة أمامه مشرقة زاهرة ، وآماله في الله
وفي الدار الآخرة ظليلة وارفة ، ولم تكن مجرد آماني ناشئة من فراغ ،
وإنما هي يقين ناشئ عن ثقة عميقة في قول رب العالمين (إنا لا نضيع
أجر من أحسن عملاً)^(١) .

ونعمة الرضا توضحها هذه الآية : (جزاؤهم عند ربهم جنات
عادن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ،
ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه)^(٢) .

هذه هي العقيدة الصحيحة . . .

فكم من خير يضيعه الإنسان إذا انحرف عنها !!
وكم من فلاح يصل إليه ، وخير يستحوذ به ويحصل عليه إذا
استمسك بها وحرص عليها .

وماذا لنا بعد هذا البيان : (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ،
وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

(ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة
إنك أنت الوهاب) .

(٢) البينة / آخر آية .

(١) الكهف / ٣٠ .

خاتمة

من خلال هذه الدراسة التي قدمتها في صورتها الجديدة عن عقيدة الإسلام يستبين لنا عدد من الحقائق والقواعد ، والقوانين التي تكشف عن سمو الجانب الاعتقادي في الإسلام ، وعن آثاره العميقة في بقضة المجتمع ووعيه وصدق تصوره ، وسلامة تفكيره ، وصحة تقديره للأشياء من حوله ، كما تبين مدى تقويمه للأخلاق ، وتوجيهه السيد لحركة الإنسان وسلوكه .

ومن هذه الحقائق . . .

• عقيدة الإسلام أول (أيدلوجية) في تاريخ البشر تستند إليها حقوق الإنسان وهي الحرية والإخاء والمساواة ، ويضاف إليها حق الخطأ ، وهذه ليست حقيقة فكرية فحسب ، ولكنها حقيقة فكرية وعملية .

• عقيدة الإسلام بما تعتمد عليه من أسس عقلية ومنطقية سديدة وقوية ترفض منطق الإكراه ، وتأبى أن يجبر أحد عليها دون الإقناع ، وأسلوب إملاء الرأي دون مناقشة أسلوب مردود على صاحبه ، ولهذا عندما حدثنا الله عن نفسه ، وأرشدنا إلى نواحي عظمته وألوهيته ، ولكونها كلها معقولة لم يرض سبحانه للمؤمن بها إلا أن يكون حراً مختاراً ؛ ولذا قال سبحانه بعد آية الكرمي التي تناولت المعاني التي أسلفتها (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) .

• مجرد الإيمان بالله تعالى لا يكفي لفلاح الدنيا وسعادة الآخرة بل لابد من إخلاص الإيمان لله بتوجيه العبودية له وحده ، قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

• لفظ الجلالة (الله) اختصت به اللغة العربية من بين لغات العالم ، والألفاظ التي تعبر عن الذات الإلهية في اللغات الأخرى ليس لها معطيات لفظ الجلالة .

• كل عقائد التوحيد من نبوات وسمعيات ، وإيمان بعالم الغيب كعالم الشهادة يدخل في دائرة لا إله إلا الله التي تمثل العلاقة الصحيحة بين الله تعالى وخلقه .

• الإيمان بسنن الله الكونية عنصر أساسي في عقيدة الإسلام ، والمسلم الذي يهمل الإيمان بالسنن الكونية تحت ستار التوكل على الله لا يقل خطأ ، ولا خطراً عن الملحد الذي لا يضع في حسابه قدرة الخالق العظيم .

• كل أنواع الخرافات والدجل السائدة في المجتمعات الإسلامية غير الواعية تتنافى تماماً مع عقيدة الإخلاص التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام .

• العمل والبذل في الإسلام يجب أن يكون لله وحده ، وعلى المسلم الواعي أن يسقط الناس من حسابه ، ولا يجعلهم غاية له في مثل هذه الأعمال العظيمة ، وإلا ضيع جهده في غير طائل ، فلم يكتسب الحمد ، ولم يستبق الجهد .

* عقيدة الإسلام دعامة حضارية شامخة تستهدف البناء العلمى الصحيح لعقلية الإنسان وأبعاد تفكيره ، ليكون فرداً بناءً فى مجتمعه ، فالمجتمعات العظيمة ، تقوم على أكتاف أفراد عظماء .

* اتبع الإسلام منهج التفكير فى ملكوت الله ، والنظر فى السموات والأرض ، والسير التاريخى أو السير الفكرى - وسائل متعددة لتحقيق سكينه الإقناع للعقول المؤمنة ، ولتبهت بقوة الدليل القلوب المكابرة المخالفة .

* عبادة الله إطار شامل لسلوك الإنسانى على الأرض ؛ إذ تكون العبودية هى المهيمنة عليه ، وهى التى توجه سلوكه ، وتقود حركته الواعية فى ظلال الشريعة العادلة وقد قال تعالى :
(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) .

* العقيدة الصحيحة ثمر العمل الصالح ، والخلق القويم ، وعندما تعجز العقيدة عن تحقيق هذا الجانب دل ذلك على فسادها ، وأنها عاطفة بلا يقين ، ودعوى بلا دليل ، وشجرة بلا ثمر .

* وأخيراً أذكر فى ختام هذه القواعد والقوانين قوله تبارك وتعالى فى مجال الإيمان بالقدر ، والتسليم المطلق له : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم) .

والحمد لله رب العالمين . .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	عقيدة الاسلام في القرآن
٥	بين يدى هذا الكتاب
١١	الفصل الأول : عقيدة الاسلام
١٣	العقيدة في الاسلام
١٧	محور العقيدة في الاسلام
٢٢	توحيد الألوهية
٢٤	مشركو العرب .. كيف كان شركهم
٢٨	الحنيفية والحنفاء
٢٩	منهج القرآن الكريم في بناء العقيدة وتأصيلها
٣٦	توحيد الاسماء والصفات
٤١	الايمن والاسلام - مفهوم جديد
٥٥	الفصل الثانى : التوحيد في الاسلام
٥٧	كلمة التوحيد في الاسلام
٥٨	معنى لا اله الا الله
٥٩	النفى والاثبات في كلمة التوحيد
٦١	لا اله الا الله يندرج تحتها كل عقائد التوحيد
٦٧	المضمون السياسى لكلمة التوحيد
٧٣	لكلمة التوحيد ركنان
٧٥	مظاهر العبادة
٨٣	لفظ الجلالة (الله) مضمونه ومؤداه
٨٧	خصائص العقيدة الاسلامية
٩٥	الفصل الثالث : العقيدة وأثرها في الأخلاق والسلوك
٩٧	الايمن بالسسن الكونية
١٠١	العقيدة الصحيحة تدعم حقوق الانسان
١٠٣	الالتزام بالشريعة
١٠٦	مراقبة الله في السر والعلن
١٠٧	احسان العمل
١١١	الهداية
١١٥	التضحية والفسداء
١١٩	القصء والاعتدال
١٢١	الصبر
١٢٥	خاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله

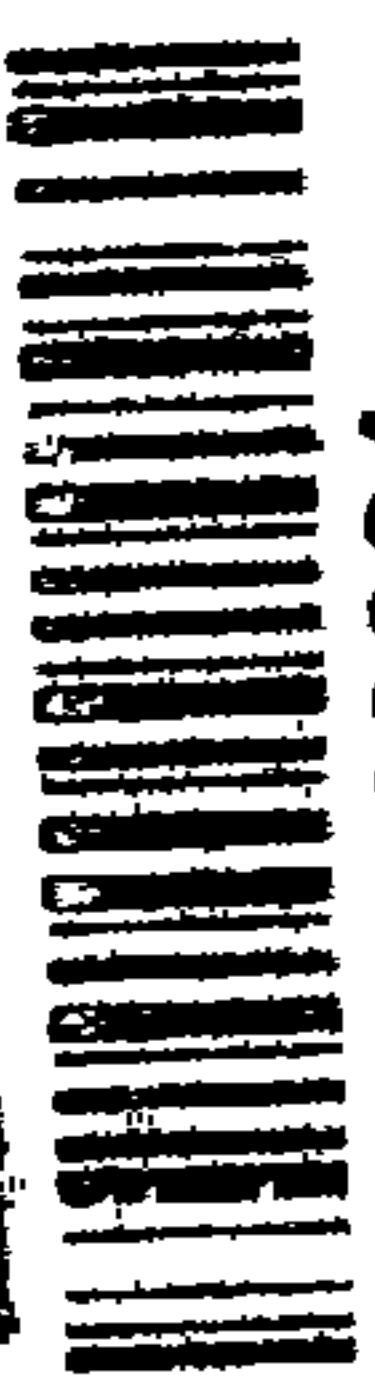
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله

Bibliotheca Alexandrina



0339834

والحمد لله